والمعنىٰ: أنّ اللهَ تعالىٰ عَذَّبَهم أوّلًا بعذابٍ شديد، فعَتَوا بعدَ ذلك، فمَسَخَهم. وقيل: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا﴾، تكريرٌ لقولِه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾، والعذابُ البئيس: هو المَسْخ.

[﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ١٦٧]

قولُه: (والمعنىٰ: أنّ اللهَ تعالىٰ عَذَّبَهم أوّلًا بعذابٍ شديد، فعَتَوا بعدَ ذلك): يريد أن الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا﴾ فصيحة، أي: فلمّا نسوا عمّا ذُكِّروا به عذَّبْناهم، ليَتَنبَّهوا[1] ويتَّعِظوا، فما نَجَع فيهم الوعظ، فعتَوْا بعد ذلك، فمسخْناهم. فإذاً العذاب غير المسْخ، والنسيان غير العتوّ[2]. نحوه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤-٩٥][3].

أو هي تكرير[4]، فيراد بقولِه تعالى: ﴿عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا﴾ قولُه: ﴿نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾، ومعناه: فلمّا تركوا ما ذكَّرهم به الصالحون من أمر ربِّهم، مَسخْناهم، لأنهم كانوا مأمورين بألّا يشتغلوا فيه بغير العبادة، فلمّـا اشتغلوا بالصَّيد عَـتَوا عن أمْر ربهم. ويرادُ بقوله تعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ قوله: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ وهو المَسْخ، كما سبق.

قال القاضي: «يجوز أن تكون الآيةُ الثانية تقريراً وتفصيلاً للأولى»[5].

---

(١) كذا في (ط)، وفي غيرها من الأصول الخطية: «لينتهوا».

(٢) هذا ردٌّ لِما قيل من أن قوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا﴾ تكرير لقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾، والعذاب البئيس: هو المسخ.

(٣) والشاهد أن الفاء في «فأخذناهم» فصيحة، لأن ما بعدها مترتب على ما قبلها.

(٤) أي: لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾.

(٥) «أنوار التنزيل» (٣: ٦٩).

﴿تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾: عَزَمَ ربُّك، وهو تَفَعَّلَ؛ مِن الإيذان، وهو الإعلام؛ لأنّ العازِمَ علىٰ الأمرِ يُحدِّثُ نفسَه به ويُـؤْذِنُها بفِعْلِه، وأُجرِيَ مُجْرىٰ فِعْلِ القَسَم، كعَلِمَ الله، وشَهِدَ الله. ولذلك أُجيبَ بما يُجابُ به القَسَم، وهو قولُه: ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾، والمعنىٰ: وإذْ حَتَّمَ ربُّك وكَتَبَ علىٰ نفسِه ليَبعَثَنَّ علىٰ اليهودِ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، فكانوا يُؤدُّونَ الجِزْيةَ إلى المجوس، إلى أنْ بَعَثَ اللهُ مُحمَّدًا ﷺ، فضَرَبَها عليهم، فلا تزالُ مضروبةً عليهم إلىٰ آخرِ الدَّهْر. ومعنىٰ ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾: لَيُسلِّطنّ عليهم، كقوله: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الأسراء: ٥].

[﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ١٦٨-١٦٩]

قولُه: (لأنّ العازِمَ علىٰ الأمرِ يُحدِّثُ نفسَه): تعليلٌ لقولِه: «﴿تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾: عَزَم ربك». يعني: إنّما عبّر عن العزم بالإذن، لأن العازم على الأمر يُشاورُ نفْسه في الفعل والتَّرْك، ثم يجزمُ على الفعل، ويطلبُ من النفس الإذنَ بالفعل. فكنّى[١] عن العزم بالإذن، ليُعْلَم أنّ العزمَ لم يكن إلّا بعدَ إتقان ومَشورة. ولـمّا كان العازمُ جازماً على الشيء قاطعاً، كان معنى «عَزَم»: جزَم وقضى، فصار كفعل القسَم في التأكيد، فأُجيب[٢] بما يجابُ به القسَم.

قال الزجّاج: «قيل: ﴿تَأَذَّنَ﴾: تألّى. وقيل: ﴿تَأَذَّنَ﴾: أعلَم. والعربُ تقول: تعلَّمْ أنه كذا وكذا، في معنى: أعلمْ»[٣].

---

(١) أي: في قوله: ﴿تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ كناية عن صفة، فقد ذكر التأذن، وأراد لازم معناه، وهو العزم والقضاء في الأمر.

(٢) أي: بقوله: ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾، حيث أوقع اللام في جوابه، كما في جواب القسم.

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٢: ٤٢٨).

﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾: وفرَّقْناهم فيها، فلا يكادُ يخلو بَلَدٌ من فِرقةٍ منهم، ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾: الذين آمَنوا منهم بالمدينة، أو الذينَ وراءَ الصِّين، ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾: ومنهم ناسٌ دونَ ذلك الوَصْفِ مُنْحطّونَ عنه، وهم الكَفَرةُ والفَسَقة.

فإنْ قلتَ: ما محلُّ ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾؟ قلتُ: الرَّفع، وهو صِفةٌ لموصوفٍ محذوف، معناه: ومنهم ناسٌ مُنْحَطُّونَ عن الصَّلاح، ونَحوُه: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤]، بمعنىٰ: وما منّا أحدٌ إلّا له مقام، ﴿وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: بالنِّعَمِ والنِّقَم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: فيُنيبون.

﴿فَخَلَفَ﴾ مِن بعدِ المذكورينَ ﴿خَلْفٌ﴾ وهمُ الذينَ كانوا في زمَنِ رسولِ الله ﷺ، ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾: التوراةَ، بقِيَتْ في أيديهم بعدَ سَلَفِهم يقْرؤونها، ويقِفونَ علىٰ ما فيها مِن الأوامرِ والنَّواهي والتحليلِ والتَّحْريم، ولا يَعْملونَ بها، ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ أي: حُطامَ هذا الشيءِ الأدنىٰ، يُريد: الدنيا وما يُتَمتَّعُ به منها. وفي قوله: ﴿هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ تخسيسٌ وتحقير. والأدنىٰ: إمَّا مِن الدُّنُوِّ بمعنىٰ: القُرْب، لأنه عاجلٌ قريبٌ، وإمّا مِن دُنُوِّ الحالِ وسُقوطِها وقِلّتِها، والمُراد: ما كانوا يأخذونَه مِن الرُّشا في الأحكامِ علىٰ تحريفِ الكَلِم للتسهيلِ علىٰ العامّة، ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾: لا يُؤاخِذُنا اللهُ بما أخَذْنا، وفاعلُ ﴿سَيُغْفَرُ﴾ الجارُّ والمجرور، وهو ﴿لَنَا﴾، ....

قولُه: (﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾: الذين آمَنوا منهم بالمدينة): والظاهرُ خلافُه، لِـمَا يقتضيه النظم، لقوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ كما سيجيء بيانُه.

قولُه: (﴿خَلْفٌ﴾)، النهاية: «الـخَلَفُ ـ بالتحريك والسكون ـ: من يجيءُ بعدَ من مَضَىٰ، إلّا أنه بالتحريكِ في الخير، وبالتسكين في الشرّ، يقال: خَلَفُ صِدْق، وخَلْفُ سُوء، ومعناهما جميعاً: القَرْن من الناس».

ويجوزُ أنْ يكونَ «الأخذَ» الذي هو مَصدَرُ ﴿يَأْخُذُونَ﴾، ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ **الواوُ للحال**، أي: يَرْجونَ المغفرةَ وهم مُصِرُّونَ عائدونَ إلى مِثلِ فِعْلِهم غيرُ تائبينَ. وغُفرانُ الذنوبِ لا يَصِحُّ إلّا بالتوبة، والمُصِرُّ لا غُفرانَ له، ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يَعْني قولَه في التَّوراة: مَنِ ارتكبَ ذنبًا عظيمًا فإنه لا يُغفرُ له إلّا بالتوبة، ﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾: في الكتابِ من اشتِراطِ التوبةِ في غُفرانِ الذُّنوب، **والذي عليه المُجْبِرةُ هو مذهبُ اليهودِ بعَيْنه** كما ترىٰ.

قولُه: (﴿وَإِن يَأْتِهِمْ...﴾: الواوُ للحال) أي: من الضمير في «يَقُولُونَ»، والقول: بمعنى الاعتقاد والظنّ. ولذلك قال: «يَرْجُون المغفرةَ وهم مُصِرُّون».

النهاية: «لـمّا رأى رسولُ الله ﷺ الأَخْبِيةَ في المسجد قال: «البِرَّ تَقُولُونَ بِهِنّ»[1]؟ أي: أتظنّون وترَوْن أنّهن أردْنَ البِرّ؟».

قال الزجّاج: «إنهم كانوا يُذنِبونَ بأخذ الرُّشا، ويقولون: سيُغْفَر لنا، من غير أن يتوبوا، لأن قوله تعالى: ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ دليلٌ على إصرارِهم على الذَّنب»[2].

قولُه: (والذي عليه الـمُجبِرةُ هو مذهبُ اليهودِ بعَيْنه) سقطةٌ منه، لأنّ أهلَ السنّة لا يَتَمنَّوْن المغفرةَ مع الإصرار، وهم أحزَمُ من ذلك؛ ألا ترى إلى ما رواه الترمذي عن شدّاد[3]، عن رسول الله ﷺ: «الكَيِّسُ مَن دَانَ نَفْسَهُ وعَمِلَ لِما بَعْدَ الـمَوْت، والعَاجِزُ مَنْ أَتبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتـمَنَّىٰ عَلىٰ الله»[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٠)، من حديثِ عائشةَ رضي الله عنها.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٢: ٤٢٩).

(٣) شداد بن أوس الأنصاري، يكنى أبا يعلىٰ. مات بفلسطين سنة ٥٨هـ. انظر: «الاستيعاب» (٢: ٦٩٤)، و«أسد الغابة» (٢: ٥٠٧)، و«الإصابة» (٣: ٣١٩).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٤٥٩) وابن ماجه (٤٢٦٠) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣: ٣٦٩) والحاكم=

....

«دانَ نفْسه»: حاسبَها في الدنيا قبل أن تُحاسَبَ يومَ القيامة.

فكيف والسينُ في ﴿سَيُغْفَرُ﴾ تدلُّ على القطع في وقوع الخبر عن المستقبل؟ وأهل السنّة لا يَقْطعون في شيءٍ من أمورِهم، لا في الغُفران إن تابوا، ولا في الثَّواب إن عملوا، وأنتم توجِبون على الله الغفران إذا حصلت التوبة، وتقطعون بحصولِ الثواب على العمل؟ فمذهبكم في هذه الصورة مِثْلُ مذهبِهم.

وأيضاً، قولُه: «معنى أخْذِ الميثاق: هو أنّ في التوراة: مَن ارتكب ذنْباً عظيماً، فإنه لا يُغْفَر إلّا بالتوبة». وقولُه: «وفيه أنّ إثباتَ المغفرةِ بغيرِ توبةٍ خروجٌ عن ميثاقِ الكتاب»، وما أدري: أهَوَ منقولٌ من نصِّ التوراة، أو مُستَنبَطٌ من معنى الآية؟ أما الآية فدالّة على التوبيخ على أخذ الرِّشا، وتغيير أوضاع الشريعة، ونسبةِ خلافها إلى الله تعالى، كما فعلوا بصفةِ النبيِّ صلوات الله عليه، وبآية الرَّجْم، وتسويفِ النفس بالأباطيل و«يا ليت» على المغفرة مع عدم التوبة.

ثم إن هذا النقل، إن لم يصحّ، فهو تقوُّلٌ على الله تعالى بما ليس بحقّ، وهو عينُ فعل اليهود، وإن صحّ، فلِمَ لا يجوز أن يُرادَ به الشرْك، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] أو يكون منسوخاً بالنصوص القاطعةِ من الآياتِ والسنّة بالنسبة إلينا، وثانياً بالنسبة إليكم، فيكون مذهبُكم عينَ مذهبِهم؟ عفا الله عنه.

وأمّا قضية النظم: فهي أنه تعالى لما حكى عن بني إسرائيل أنهم كانوا قبل مَبعَثِ النبي ﷺ أُمَماً: منهم الصّالحون، ومنهم الكفَرة والفَسَقة، ذكر أنهم، بعدَ مبعثِه صلواتُ الله عليه أيضاً، داموا على ما كانوا: فرقةٌ منهم ما تمسّكوا بمقتضى التوراة، مع أنهم كانوا يقرؤونها، ويدرسون

= في «المستدرك» (١: ١٢٥) بإسنادٍ ضعيفٍ لضعف أبي بكر بن أبي مريم. وانظر تمام تخريجه في «مسند الإمام أحمد» (١٧١٢٣).

....

ما فيها، ويَقِفون على ما أمرَ الله، وما نهاه، من الحلال والحرام، ولا يعملون بها، وكانوا ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾، ويُحرّفون الكَلِم عن مواضعِه(١)، ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٨]، ويَتمنَّون بالأباطيل، وإليه الإشارة بقوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

وطائفةٌ أخرى منهم تمسّكوا بها، وعملوا بمُقتضاها، وآمنوا بنبيِّ الرحمة، وأقاموا الصلاة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

وينصره ما نقله محيي السنّة عن مجاهد: «هم المؤمنون من أهل الكتاب، مثل: عبد الله بن سلام وأصحابه، تمسّكوا بالكتاب الذي جاء به موسى، فلم يحرّفوه ولم يكتموه، ولم يتّخذوه مأكَلة»(٢).

فظهر من هذا أن تخصيص قوله: ﴿أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ بما قاله المصنف تحكُّم.

فعلى هذا الواجبُ أن يكون قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ﴾ الآية جملةً مبتدأة، معطوفة على قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ من حيث المعنى، والجملة من المعطوف والمعطوف عليه مستطرد لذكر قوله: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾، لأن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ عطف على قوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾، و﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ﴾، ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾، و﴿إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ﴾.

فانظر إلى هذا النظم السريّ(٣)، وتعجَّبْ مِمَّن يريد تفكيكه!

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦]، وإلى قوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣].

(٢) «معالم التنزيل» (٣: ٢٩٧).

(٣) السري: الشريف.

وعن مالكِ بنِ دينارٍ رحمَه الله: يأتي على الناسِ زمانٌ إنْ قَصَّروا عما أُمِروا به، قالوا: سيُغفَرُ لنا، لأنا لم نُشرِكْ بالله شيئًا، كلُّ أمرِهم إلى الطَّمَع، خِيارُهم فيهم المُداهَنة، فهؤلاءِ مِن هذه الأُمّةِ أشباهُ الذين ذَكَرَهمُ الله، وتَلا الآية.

﴿وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ مِن ذلك العَرَضِ الخسيس، ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الرُّشا ومَحارِمَ الله.

وقُرِئ: «وُرِّثوا الكتابَ»، و«ألّا تقولوا»، بالتاء، و«ادّارَسوا» بمعنىٰ: تَدارَسوا. و﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، بالياء والتاء.

وأمّا إذا كان(١) عطفاً على قوله: ﴿لِّلَّذِينَ﴾ كما هو عليه الوجه الثاني، يكون المراد: منهم الذين آمنوا مطلقاً، على ما روىٰ محيي السنّة عن عطاء: «هم أمة محمد صلوات الله عليه»(٢).

والأول(٣) هو القول.

قولُه: (﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالياء والتاء): بالياء التحتانية: نافعٌ وابنُ عامر وحفص. وبالتاء الفَوقانية: الباقون(٤).

---

(١) يعني قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (٣: ٢٩٧).

(٣) أي: الرفع على الابتداء في ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ﴾، ويكون المقصود بهم المؤمنين من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام.

(٤) والصحيح أن قراءة ابن عامر وحفص بالتاء على الخطاب، وقراءة الباقين بالياء على الغيبة، أي: عكس ما ذكر الطيبي. انظر: «إتحاف فضلاء البشر» ص٢٣٢، و«البحر المحيط» (٤: ٤١٧). ولتمام الفائدة انظر: «حجة القراءات»، ص٣٠١.

فإنْ قلتَ: ما موقعُ قولِه: ﴿أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾؟ قلتُ: هو عَطفُ بيانٍ لـ﴿مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾. ومعنىٰ ﴿مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: الميثاقُ المذكورُ في الكتاب، وفيه أنَّ إثباتَ المغفرةِ بغيرِ توبةٍ خروجٌ عن ميثاقِ الكتاب، وافتراءٌ علىٰ الله، وتَقَوُّلٌ عليه ما ليس بحَقّ. وإنْ فُسِّر ﴿مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ بما تَقَدَّم ذِكرُه كان ﴿أَن لَّا يَقُولُوا۟﴾ مفعولًا له، ومعناه: لِئلّا يقولوا، ويجوزُ أنْ تكونَ ﴿أَن﴾ مُفسِّرة، و﴿لَّا يَقُولُوا۟﴾ نَهْيًا، كأنه قيل: ألم يُقَلْ لهم: لا تقولوا علىٰ الله إلّا الحقّ؟

قولُه: (هو عطفُ بيانٍ لـ﴿مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾): أجابَ عن السؤال بوجهَين:

أحدهما: أنّ ﴿أَن﴾ في ﴿أَن لَّا يَقُولُوا۟﴾ ناصبةٌ للفعل، وهو إما تفسير ﴿مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ والإضافة، بمعنى: في أيِّ الميثاق المذكور في الكتاب، وهو ﴿أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾. وفي جملةِ ذلك ألّا يقولوا: إنّ اللهَ يَغفرُ الذنوبَ العِظامَ بغيرِ توبة.

وإمّا مفعولٌ به، و﴿مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مُبْهَمٌ لا يُعْلَم ما هو. فاخترعَ أن بيانَه وتفسيره: مَن ارتكبَ ذنباً عظيماً، فإنه لا يُغفر إلّا بالتوبة. أي: أَمَا تقرّر وأُخِذ ميثاقكم أنَّ من ارتكبَ ذنباً عظيماً لا يُغفَرُ له إلّا بالتوبة، لئلا يقولوا على الله إلّا الحق؟

وثانيهما: أن ﴿أَن﴾ مُفسِّرة، لأن في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ معنى القول، أي: ألم يُقَل لكم: لا تقولوا على الله إلا الحق؟ وهو ذلك القولُ بزعمِه واختراعه.

وقلت: الحقُّ أنّ الإنكار والتوبيخ واردان[1] على تركِ استحفاظهم كلامَ الله، والتمادي في التحريف والتغيير، وعليه أخذ الله ميثاقَهم كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤]، قال المُصنِّف: «بما سألهم أنبياؤهم حِفْظَه من التغيير والتبديل»،

---

(١) في (ج): «وارد».

فإنْ قلتَ: علامَ عطفَ قولَه: ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾؟ قلتُ: علىٰ ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم﴾، لأنه تقرير، فكأنه قيل: أُخِذَ عليهم ميثاقُ الكتابِ ودَرسوا ما فيه.

[﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ ١٧٠]

﴿وَٱلَّذِينَ يُمسِكونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ فيه وجهان: أحدُهما: أنْ يكونَ مرفوعًا بالابتداء، وخَبَرُه: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾، ....

يعني: ألم يؤخَذ عليهم الميثاق، باستحفاظِ كتاب الله من التغيير والتبديل؟ فكيف غيّروا وبدّلوا وأخذوا عليه الرِّشا، فكفروا ونقَضوا ميثاقَ الله، ثم قالوا: استغْفِر لنا؟

فإن قلت: فعلىٰ هذا: المُنكرُ هو التغييرُ والتبديل، والمُنكر هو القول، لِـما مَرّ أن قوله: «﴿أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ عطفُ بيان لـ ﴿مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾».

قلت: إنهم إذا غيّروا وبدّلوا[1]، لا بدَّ أن يقولوا: هو من عند الله، ليأخذوا عليه الرِّشا.

قال المصنفُ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٨]: «قال ابنُ عباس: هم اليهودُ منَ الذين قَدِموا على كعبِ بن الأشرَف، غيّروا التوراة، وكتبوا كتاباً بدّلوا فيه صفةَ رسول الله ﷺ، ثم أخذَت قُريظة ما كتبوه، فخلطوه بالكتاب الذي عندَهم». والله أعلم.

قولُه: (لأنه تقرير) أي: يجب أن يكون ﴿وَدَرَسُواْ﴾ عطفاً على ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ﴾، وإن اختلفا خَبَراً وطلباً، لأن الاستفهام[2] واردٌ على التقرير، فهو بمنزلة الإخبار عن الثابت، فيصحّ العطفُ لعدم المُنافاة. ولهذا قال: «أُخِذَ عليهم الميثاق، ودرسوا».

---

(١) من قوله: «وأخذوا عليه الرِّشا فكفروا ونقضوا ميثاق الله» إلىٰ هنا سقط من (ط).

(٢) يعني في قوله: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم﴾؟ وهو استفهام تقريري.

والمعنىٰ: إنّا لا نُضيعُ أجرَهم؛ لأنّ ﴿ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ في معنىٰ «الذين يُمسِكونَ بالكتاب»، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]. والثاني: أنْ يكونَ مجرورًا عطفًا علىٰ «الذينَ يتّقون»، ويكونَ قولُه: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ اعتراضًا.

وقُرِئَ: ﴿يُمَسِّكُونَ﴾ بالتشديد. وتَنْصرُه قِراءةُ أُبيّ: «والذين مَسَّكوا بالكتاب».

فإنْ قلتَ: التمسُّكُ بالكتابِ يَشتَمِلُ علىٰ كلِّ عبادة، ومنها إقامةُ الصَّلاة، فكيف أُفرِدَت؟ قلتُ: إظهارًا لمزيّةِ الصلاةِ لكونِها عِمادَ الدِّين، وفارِقةً بين الكفرِ والإيمان.

وقرأ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه: «والذينَ استَمْسَكوا بالكتاب».

[﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ١٧١]

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾: قَلَعْناه ورَفَعْناه، كقوله: ....

قولُه: (والمعنىٰ: إنّا لا نُضيعُ أجرَهم): يعني: لا بدَّ في الخبر إذا كان جملةً من عائد إلى المبتدأ، فقوله: ﴿أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾، وإن لم يكن فيه الضمير، لكنه هو نفسُ المبتدأ، فهو من إقامة الـمُظهَرِ موضعَ الـمُضمَر، للعِلّية[1].

قولُه: (وقرئ: ﴿يُمَسِّكُونَ﴾ بالتشديد): الجماعةُ إلّا أبا بكر[2].

---

(١) يعني: كان مقتضى الظاهر أن يقال: إنا لا نضيع أجرهم، لكنه قال: ﴿أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ وضعاً للمظهر موضع المضمر للتعليل.

(٢) وقراءة التشديد من التمسّك، وهي تُفيد معنى التأكيد والتكرير. أمّا قراءة التخفيف فمِن «أمسَك»، ولا تدلّ على ما تدلّ عليه قراءة التشديد. انظر: «الكشف عن وجوه القراءات» (١: ٤٨٢)، و«حجة القراءات»، ص٣٠١.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ﴾ [النساء: ١٥٤]، ومنه: نَتَقَ السِّقاء؛ إذا نَفَضَه ليقتَلِعَ الزُّبدةَ منه. و«الظُّلَّة»: كلُّ ما أظلَّكَ مِن سَقيفةٍ أو سحاب. وقُرِئ بالطاء، مِن: أطلَّ عليه؛ إذا أشرفَ، ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾: وعَلِموا أنه ساقطٌ عليهم، وذلك أنّهم أبَوا أنْ يَقْبَلوا أحكامَ التوراة لغِلَظِها وثِقَلِها، فرفعَ اللهُ الطورَ علىٰ رؤوسِهم مقدارَ عَسْكرِهم، وكان فَرْسخًا في فَرْسخ، وقيل لهم: إنْ قَبِلتُموها بما فيها وإلّا ليَقَعنَّ عليكم، فلما نَظَروا إلى الجبلِ خَرَّ كلُّ رجلٍ منهم ساجدًا علىٰ حاجبِه الأيسر، وهو ينظرُ بعَينِه اليُمنىٰ إلى الجبلِ فَرَقًا مِن سُقوطِه، فلذلك لا تَرىٰ يهوديًّا يَسجُدُ إلّا علىٰ حاجبِه الأيسر، ويقولون: هي السَّجْدةُ التي رُفِعَت عنا بها العُقوبة، ولـمّا نَشَر موسىٰ **الألواحَ** وفيها كتابُ الله، لم يَبْقَ جبلٌ ولا شجرٌ ولا حجرٌ إلّا اهْتَزّ، فلذلك لا تَرىٰ يهوديًا تُقرأُ عليه التوراةَ إلّا اهتَزّ وأنغَضَ لها رأسَه، ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم﴾ علىٰ إرادةِ القول، أي: وقلنا: خُذوا ما آتيناكم، أو قائلينَ: خُذوا ما آتيناكم من الكتاب، ﴿بِقُوَّةٍ﴾ وعَزْمٍ علىٰ احتمالِ مَشاقِّهِ وتكاليفِه،

قولُه: (ومنه: نَتَقَ السِّقاء): ابن السكّيت: «السِّقاء: يكون للَّبَن والماءِ، والوَطْب: للَّبَن خاصّة، والنِّحْيُ: للسَّمْن، والقِرْبة: للماء»[(١)].

قولُه: (ولـمّا نَشَر موسى عليه السلام الألواحَ) إلى آخر القصّة، مُستطرَدٌ[(٢)] لذكر نَـتْق الجبل، وسجودِ القوم على حاجبهم، كما كان قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ الآيتين، مُستطرَداً من المعطوف والمعطوف عليه، على ما سبق.

---

(١) «إصلاح المنطق» ص٣٧٥، وليس فيه: «والقربة للماء»، والوَطْب ـ بفتح الواو، وإسكان الطاء ـ: جِلد الجَذَع فما فوقه. والنِّحْي ـ بكسر النون وإسكان الحاء ـ: زقّ السمن.

(٢) المقصود أن قوله تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٍ...﴾ هو المستطرد لذكرِ نَـتْقِ الجبل. يعني: قَـلْعَه ورفعه.

﴿وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ من الأوامرِ والنّواهي ولا تَنْسَوه، أو: اذْكُروا ما فيه من التعريضِ للثوابِ العظيمِ فارْغَبوا فيه. ويجوزُ أنْ يُرادَ: خُذُوا ما آتيناكُم من الآيةِ العظيمةِ بقوّةٍ إنْ كنتُم تُطيقونَه، كقولِه: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْ﴾ [الرحمن: ٣٣]. ﴿وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ من الدَّلالةِ على القُدرةِ الباهرةِ والإنذار، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ ما أنتُم عليه. وقرأ ابن مسعود: «وتَذْكُروا» وقُرِئ: «واذَّكَّروا»، بمعنى: وتذكَّروا.

[﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ * أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ * وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ ١٧٢ - ١٧٤]

﴿مِن ظُهُورِهِمۡ﴾ بَدَلٌ من ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ بَدَلَ البعضِ مِن الكُلّ، ومعنى «أَخْذِ ذُرّياتِهم من ظهورِهم»: إخراجُهم من أصلابِهم نَسْلًا وإشهادُهم على أنفسِهم.

قولُه: (أو: اذْكُروا ما فيه من التعريضِ)، الجوهري: «عَرَّضْتُ فُلاناً لكذا فتعرَّض هو له».

قولُه: (ويجوزُ أنْ يُرادَ: خُذُوا ما آتيناكُم من الآيةِ)، فعَلى هذا، المراد من نَتْقِ الجبل: إظهارُ العجز لا غير، كما في الآية[١] المستشهَد بها، كما تقول لمن يدّعي الصُّرْعةَ[٢] والقوّة بعدما غلبتَه: خُذه منّي، يعني: إن كنتم تطلبون آية قاهرة، وتَقترِحُونها، خذوا ما آتيناكم إن كنتم تُطيقون.

---

(١) يعني قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْ﴾ [الرحمن: ٣٣]. وقد استشهد بها الزمخشري على المعنى المذكور لقوله: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾.

(٢) أي: الشدة والغلبة.

قولُه: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ مِن بابِ التمثيلِ والتخييل، ومعنىٰ ذلكَ أنه نَصَبَ لهم الأدلةَ علىٰ رُبوبيّتِه ووَحْدانيتِه، وشَهِدَتْ بها عقولُهم وبصائرُهم التي رَكَّبها فيهم، وجَعَلَها مُميِّزةً بينَ الضَّلالةِ والهدىٰ، فكأنه أشهَدَهم علىٰ أنفسِهم وقَرَّرَهم وقالَ لهم: ألستُ بربكم؟ وكأنّهم قالوا: بلىٰ أنتَ ربُّنا، شَهِدْنا علىٰ أنفسِنا وأقرَرْنا بوَحْدانيتِك.

وبابُ التمثيلِ واسعٌ في كلام الله تعالىٰ ورسولِه عليه الصلاة والسلام، وفي كلامِ العرب. ونظيرُه قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] وقوله:

إذْ قالَتِ الأَنساعُ للبَطْنِ: الْـحَقِ
قالَـتْ لَـهُ رِيـحُ الصَّـبَا: قَرْقَـارِ

قولُه: (وشَهِدَتْ بها عقولُهم) عطفٌ على قولِه: «نَصَب لهم الأدلّة»، وكذا «جعَلَها مميّزة»، أي: جمع بين نصْب الأدلّة وبينَ جعْلِ القوةِ مميّزة، وبين شهادتها، لتكون الاستعارة تمثيليةً مركّبة من عدةِ أمور متوهَّمة.

هذا هو المراد من قوله: «من باب التمثيل والتخييل»، لا ما ظُنّ أنها من الاستعارة التخييلية، لأن المشبَّه به في التخييلية أمرٌ واحد مُحقَّق يُطلقُ على المخترَع المتوهَّم، كالأنياب في قولك: أنيابُ الـمَنيّة نشَبَتْ بفلان.

قولُه: (إذْ قالَتِ الأنساعُ)[١] مضى شرحُه في «البقرة».

قولُه: (قَالَتْ لهُ رِيحُ الصَّبَا: قَرْقَارِ)، بعده:

واخْتَلَطَ المعروفُ بالإنكارِ[٢]

---

(١) سبق تخريجُه.

(٢) البيت من الرجز لأبي النجم العجْليّ. والقرقرة: الهدير.

ومعلومٌ أنه لا قولَ ثَمَّ، وإنَّما هو تمثيلٌ وتصويرٌ للمعنىٰ.

﴿ أَوۡ تَقُولُوٓاْ ﴾ مفعولٌ له، أي: فَعَلْنا ذلك مِن نَصْبِ الأدلةِ الشاهدةِ علىٰ صحّتِها العقولُ كَراهةَ ﴿أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ لم نُنبَّهْ عليه، ﴿ أَوۡ ﴾ كراهةَ أنْ ﴿ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ ﴾ فاقتدَيْنا بهم، لأنَّ نَصْبَ الأدلةِ علىٰ التوحيدِ وما نُبِّهوا عليه قائمٌ معهم، فلا عُذْرَ لهم في الإعراضِ عنه والإقبالِ علىٰ التقليدِ والاقتداءِ بالآباء، كما لا عُذرَ لآبائِهم في الشِّرك، وأدلةُ التوحيدِ منصوبةٌ لهم.

الضميرُ المجرور في «له» للسحاب، أي: قالت للسحاب الريحُ: قَرْقِرْ بالرعد. فهو أمرٌ من القَرْقَرة، وهو(١) في الرباعي كـ«نَزَالِ» في الثلاثي.

«واختلط المعروف»، يعني: المطر بلغ كلَّ مكان مما يُعرَف ويُنكَر، أي: عمَّ الأراضي كلَّها.

شبَّه الريحَ بالآمر، والسحابَ بالمأمور، والقرقارَ بالمأمور به، وتخيَّلَ الحالاتِ على سبيل التمثيل(٢).

في «الانتصاف»: «إطلاقُ لفظ «التخييل» على كلام الله مردود»(٣).

وقلت: إذا كان القرآن وارداً على أساليب كلام العرب وافتنانهم، فلا بُعدَ في الذهاب إليه.

قولُه: (لأنّ نصب الأدلة على التوحيد) علّة لِما فُهِم من المُعلّل مع علّيته، أي: فعلْنا ذلك كراهةَ أن تَعْتذروا بالغفلة والتقليد، «لأن نَصْبَ الأدلّة..» إلى آخره.

---

(١) يعني: قرقار: اسمُ فعلِ أمرٍ من الرباعي «قَرْقَر».

(٢) يعني: الاستعارة التمثيلية.

(٣) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٢: ١٢٩).

فإنْ قلتَ: بنو آدمَ وذُرّياتُهم مَنْ هُم؟ قلتُ: عَنىٰ بـ«بني آدم»: أسلافَ اليهودِ الذينَ أشركوا بالله، حيثُ قالوا: عُزَيرٌ ابنُ الله. وبـ«ذريّاتِهم»: الذينَ كانوا في عهدِ رسولِ الله ﷺ من أخلافِهم المُقتَدينَ بآبائِهم، والدليلُ علىٰ أنّها في المُشرِكينَ وأولادِهم: قولُه: ﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾، والدليلُ علىٰ أنها في اليَهود: **الآياتُ التي عُطِفَت عليها هِي، والتي عُطِفَت عليها وهي علىٰ نَمَطِها وأسلوبِها**، وذلك قولُه: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [الأعراف: ١٦٣]، ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤]، ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧١]. ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٧٥].

ويجوز أن يكون تعليلاً للثاني، كأنه قيل: فعلْنا نصبَ الأدلة كراهةَ أن تقولوا: ﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾، لأنه «قائم معهم» لا يُفارِقُهم[1]، «فلا عُذرَ لهم في الإعراض عنه، والإقبال على التقليد». فلمّا كان هذا التنبيهُ لا يُفارِقُ أحداً من المكلَّفين، قال: «لا عُذرَ لآبائهم في الشرك».

قولُه: (**الآياتُ التي عُطِفَت عليها هي**) أي: عطفت: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ﴾، ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟﴾ [الأعراف: ١٦١].

قولُه: (**والتي عُطِفَت عليها**) أي: على قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ﴾، وهي قوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٧٥] وسائر الآيات التي تتعلّقُ بـ«بَلْعَم»[2].

قولُه: (**وهي على نَمَطِها وأسلوبِها**): أي: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾: على نمط الآيات المُتقدِّمةِ والمتأخرة.

---

(١) «لا يفارقهم» جملة تفسيرية من الطيبي.

(٢) بَلْعَم أو بَلْعام بن باعوراء، عالم من علمـاء بني إسرائيل، أو من الكنعانيين، وستأتي قصتُه عند الآية المذكورة.

﴿أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ أي: كانوا السَّبَبَ في شِرْكنا؛ لتأسيسِهم الشِّرك، وتقدُّمِهم فيه، وتَرْكِه سُنَّةً لنا.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: ومِثلَ ذلك التفصيلِ البليغ، ﴿نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ لهم، ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾: وإرادةَ أنْ يَرجِعوا عن شِرْكهم نُفصِّلُها.

وقُرِئ: «ذُرِّيَّتَهم» علىٰ التوحيد، و«أنْ يقولوا» بالياء.

ولقائل أن يقول: لِمَ لا يجوز أن يكون عامّاً كالتذييل للميثاق الخاص، فيدخل فيه اليهود دخولاً أوّلياً، فلا تكون الواو عاطفة؟ ولأن ألفاظها لا تقبل التخصيص إلا بالتعسف، كما أوّل الشرك.

وبيان التذييل أن قوله: ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ﴾ [الأعراف: ١٧١] في معنى: أخذ الميثاق، بدليل قوله تعالى في «البقرة»: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البقرة: ٦٣، ٩٣]، وقول المصنف: «﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ﴾: بالعمل بما في التَّوراة ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ حتى قبِلْتم، وأعطيتم الميثاق». أتى بالميثاق الخاص، من حيث الصورة، ثم عقّبه بالعامّ من حيث المعنى، دلالةً على شدة شكيمتهم، وفرط عتوِّهم في أن الإلزام السمعيّ والعقليّ ـ على رأيه ـ لا يُجدِي فيهم.

قال القاضي: «المقصودُ من إيراد هذا الكلام إلزامُ اليهود بمقتضى الميثاق العام، بعد ما ألزمهم بالميثاق المخصوص بهم، والاحتجاج عليهم بالحُجَج السمعية والعقلية، ومنعهم عن التقليد، وحملهم على النظر والاستدلال، كما قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾، أي: عن التقليد، واتّباع الباطل»[١].

---

(١) «أنوار التنزيل» (٣: ٧٢).

....

وقلتُ: ويؤيده ما روينا عن مالك، وأحمد بن حنبل، والترمذي، وأبي داود، و«شرح السنّة»، عن عمر رضي الله عنه أنه سئل عن هذه الآية، قال: سُئِل عنها رسول الله ﷺ فقال: «إنَّ الله خَلَق آدَم، ثُمَّ مَسَح ظَهرَه بيَمينِه، فاستَخرَج مِنه ذُرِّيَّة، فقال: خَلَقت هَؤُلاء للجَنَّة، وبعَمَل أهل الـجَنَّة يَعمَلُون، ثُمَّ مَسَح ظَهرَه، فاستَخرَج مِنه ذُرِّيَّة، فقال: خَلَقت هَؤُلاء للنَّار، وبعَمَل أهل النَّار يَعمَلُون». فقال رجُل: يَا رَسُول الله، فَفِيم العَمَل؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنّ الله تَعالىٰ إذا خَلَق العَبد للجَنَّة، استَعمَلَه بعَمَل أهل الـجَنَّة، حَتَّىٰ يَمُوت علىٰ عَمَل مِن أعمال أهل الـجَنَّة، فيُدخِلَه به الـجَنَّة، وإذا خَلَق العَبد للنَّار، استَعمَلَه بعَمَل أهل النَّار، حتَّىٰ يَمُوت عَلىٰ عَمَل مِن أعمال أهل النَّار»[1].

قال الإمام: «أطبقَت المعتزلةُ على أنه لا يجوز تفسيرُ الآية بالحديث، لأن قوله: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ بدلٌ من قوله: ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾، فالمعنى: وإذ أخذَ ربُّك من ظهور بني آدم، فلم يذكر أنه أخذ من ظهر آدم[2] شيئاً، ولأنه لو كان المرادُ أنه أخرجَ من ظهر آدم شيئاً، لَمَا قال: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ بل يجبُ أن يقول: من ظهره، وذريّته».

وأجاب الإمام: «أن ظاهر الآية يدلُّ على أنه تعالى أخرجَ الذرّيةَ من ظهور بني آدم. وأمّا أنه أخرجَ كلَّ تلك الذرّيةِ من صُلب آدم، فليس في لفظ الآية ما يدلُّ على ثبوتِه، ولا على نَفيِه، إلّا أن الخبر قد دلّ، فثبتَ إخراجُ الذرّيةِ من ظهور بني آدم بالقرآن، وإخراج الذرّيةِ من ظهرِ آدم بالخبر، ولا مُنافاةَ بينَهما، فوجبَ المصيرُ إليهما معاً، صَوْناً للآيةِ والخبرِ عن الاختلاف»[3].

---

(١) أخرجه الإمام مالك في «الموطأ» (٢: ٨٩٨) والترمذي (٣٠٧٥) وأبو داود (٤٧٠٣) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١١٩٠) وابن حبان (٦١٦٦) وهو حديث صحيح لغيره، وانظر تمامَ تخريجه في «مسند الإمام أحمد» (٣١١).

(٢) في (ج): «على بني آدم».

(٣) «مفاتيح الغيب» (١٥: ٤٣).

....

وقال الشيخ شهابُ الدين التوربشتي: وقد ذهبَ كثيرٌ من أهل العلم إلىٰ أن المرادَ من الآية توليدُ بعضهم من بعض، على مرِّ الزمان، ولو أُريدَ استخراجُ الذرِّيةِ من صُلبِ آدم دُفعةً واحدة، لكان من حقِّ القول أن يقول: وإذْ أخذ ربُّك من ظهرِ آدم ذرّيته.

فإن قيل: بيانُ الآية في الحديث خلافُ ما ذهبوا إليه، فلهُم أن يقولوا: إنّما تركوا ظاهرَ الآية بالحديث، سيّما في مثل هذه القضية التي هي إخبارٌ عن الغيب، إذا كان الحديث المبيِّنُ للآية حديثاً صحيحاً، يجبُ به العلم. وهذا الحديث، وإن كان حديثاً حسناً، فإنه من جملة الآحاد، فلا يُترَكُ ظاهر الكتاب بمثل هذا الحديث.

مما يُمكِّننا من التوفيق بين الآية والحديث هو أن نقول: إنّما اقتصر في الحديث على ذِكر آدم، دونَ الذرّيّة، لأنه هو الأصل، فاكتفى بذكر الأصل عن الفرع.

فإن قيل: فقد روى أبو هريرةَ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لَـمّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهرَهُ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(١) إلى تمام الحديث وهو حديث صحيح، فلِمَ ذهبْتم في حديث عمر رضي الله عنه إلى التأويل الذي ذكرتموه؟

فالجواب: أن حديثَ أبي هريرةَ رضي الله عنه لا تعلُّقَ له بالآية، ولم يُذكَر فيه حديثُ الميثاق والإشهاد، وإنّما ذُكِرَ فيه أنّ الله تعالى مثّلَ لآدم ذرّيته، وعرَضَهم عليه(٢). وهذا غيرُ ذلك.

---

(١) هذا جزءٌ من حديثٍ طويل أخرجه الترمذي (٣٠٧٦) والبزّار في «المسند» (٨٨٩٢) وأبو يعلى (٦٣٧٧) وقال الترمذي: هذا حديثٌ حسن صحيح.

(٢) يشير إلى قوله ﷺ في الحديث المشار إليه: «وَجَعَل بَين عَينَي كُلّ إِنسَان مِنهُم وَبِيصاً ـ يَعني: بَرِيقاً ـ مِن نُور، ثُمَّ عَرَضَهُم عَلىٰ آدَم. فقال: أي رَبّ، مَن هَؤلاء؟ قال: هَؤلاء ذُرِّيَّتُك».
أمّا «الميثاق والإشهاد» فيشير بهما إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

....

وقد ذهبَ أهلُ التأويل إلى أن المرادَ بالإشهاد ما ركّبه اللهُ فِيهم من العقول، وآتاهم من البصائر، فكأنه أشهدَهم على أنفسِهم وقرَّرهم، وقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فكأنهم قالوا: ﴿بَلَىٰ﴾. فذهبوا في معناه إلى أنه تمثيلٌ وتصويرٌ للمعنى.

وهذا الذي ذهبوا إليه في تأويل حديث عمرَ رضي الله عنه تأويلٌ حسنٌ مستقيم، لولا مخالفتُه حديثَ ابن عباس، وهو ما رواه عن النبي ﷺ أنه قال: «أخذَ اللهُ المِيثاقَ مِنْ ظَهر آدمَ بِنَعمانَ ـ يعني: عَرفة ـ فأخرجَ مِنْ صُلْبِه كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرأها، فَنثرَهُم بَينَ يَدَيه كالذَّرِّ، ثُمّ كَلَّمَهُم قِبَلاً قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾».

وهذا الحديث مُخَرَّجٌ في كتاب أبي عبد الرحمن النَّسائي[1]. فهذا الحديثُ لا يحتملُ من التأويلِ ما يحتملُه حديثُ عمرَ رضي الله عنه، لظهور المرادِ منه.

ولا أراهم يُقابلون هذه الحجّة إلا بقولهم: إنّ حديثَ ابن عباسٍ من جُملةِ الآحاد فلا يَلْزمُنا إن تركْنا أن نَترُكَ به ظاهرَ الكتاب!

وقال: إنّما جَدّوا في الهربِ عن القول في معنى الآية بما يقتضيه ظاهرُ هذا الحديث لمكان قوله سبحانه: ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾. فقالوا: إنْ كان هذا الإقرارُ عن اضطرار، حيث كُوشِفُوا بحقيقة الأمر، وشاهدوه عينَ اليقين، فلهم يوم القيامة أن يقولوا: شهدنا يومئذ، فلمّا زال عنا عِلْمُ الضرورة، ووُكِّلنا إلى آرائنا، كان منّا من أصاب، ومنّا من أخطأ. وإن كان عن استدلال، ولكنهم عُصِموا عنده من الخطأ، فلهم أيضاً أن يقولوا:

---

(١) يعني «السنن الكبرى» (١١١٩١)، وأخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٢٤٥٥) والحاكم في «المستدرك» (٢: ٥٤٤) والبيهقي في «الأسماء والصفات»، ص٣٢٦ ورجال إسناده ثقات، ورجّح الحافظ ابن كثير في «التفسير» (٣: ٥٠١) كونَه موقوفاً على ابن عباس.

....

أُيِّدْنا يوم الإقرار بتوفيق وعِصمة، وحُرِمناهُما من بَعْد، ولو أُمْدِدْنا بهما أبداً، لكانت شهادتُنا في كلِّ حين كشهادتنا في اليوم الأول.

فقد تَبيَّنَ أنَّ الميثاق: ما ركَّبَ اللهُ فيهم من العقول، وآتاهم من البصائر، لأنها هي الحجّةُ الباقية، المانعةُ لهم عن قولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾؛ لأن اللهَ تعالىٰ جعل هذا الإقرارَ حجة عليهم في الإشراك، كما جعلَ بَعْثَ الرسول حجّةً عليهم في الإيمان، بما أُخبِروا عنه من الغُيوب.

ولهم في ذلك كلامٌ كثير اكتفَينا عنه بهذا المقدار، والغرض منه توقيفُ الطالبين على مواضع الإشكال.

والتوفيقُ بين الآية وحديثِ عمرَ رضي الله عنه ـ على ما ذكرناه ـ مُتيسِّر، والتوفيق بينهما وبينَ حديث ابن عباس ـ على الوجه الذي لا تُعارِضُه حجّةٌ أخرى من الكتاب ـ مُشْكِلٌ جداً، إلا أن يُعلَّلَ الحديثُ بما علّلوه»[1]. انتهى كلامه.

وقال القاضي في «شرح المصابيح»[2]: «والتوفيقُ بينَ الآية والحديث أن يُقال: إن المراد من ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ في الآية: آدمُ وأولاده، فكأنه صار اسماً للنوع، كالإنسان والبشر، والمراد من الإخراج: توليدُ بعضِهم من بعض، على مرِّ الزمان، واقتُصِرَ في الحديث على ذِكر آدمَ اكتفاءً بذكر الأصل عن ذكر الفرع[3].

---

(١) الظاهر من السياق أن كلام التوربشتي ينتهي هنا، وقد ورد بعض هذا الكلام في «حاشية الكازروني على البيضاوي» (٣: ٣٤) بقوله: «أورده بعضهم»، ولم يذكر من هو.

(٢) «المصابيح» كتاب في الحديث للبغوي، وقد شرحه القاضي البيضاوي في كتاب سمّاه: «تحفة الأبرار».

(٣) انظر: «حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (٤: ٢٣٦). وقد نقل النص من «شرح المصابيح» للبيضاوي، كما ذكر، وانظر كذلك: «حاشية الكازروني علىٰ تفسير البيضاوي» (بهامش «تفسير البيضاوي» ٣: ٣٣).

....

وقلتُ، وما توفيقي إلّا بالله: نُبيِّنُ أولاً أن الأحاديثَ الثلاثةَ كلَّها مُعتمَدةٌ مُتوافِقةٌ مُتعاضِدة، ثم نَشرَعُ في المقصود:

أمّا الحديث الأول: فقد سبقَ أنه اتفقَ على روايتِه الإمامان: مالك، وأحمد، والشيخان: أبو داود، والترمذي، ورواه مُحيي السنّة في «شرح السنّة» و«المصابيح»[1]، وفيه: «فاستَخرَجَ مِنهُ ذُرِّيّةً فقالَ: خَلقْتُ هؤلاءِ للجنّة، وبعملِ أهلِ الجنّةِ يَعمَلون. ثُم مَسَحَ ظَهرَه، فاستَخرجَ منهُ ذُرِّيّةً فَقَالَ: خَلقْتُ هَؤلاءِ للنّار، وبِعَمَلِ أَهلِ النّارِ يَعمَلُون» إلى آخِرِ الحديث.

هذا السياق لا يَدعُ لذي لُبٍّ ريباً في أن المرادَ بالاستخراج: استخراجُ الذَّراري كلِّها إلى انقراض العالم، وإلّا فأيُّ معنًى لقوله: فَفِيمَ العَمَل؟، وقولِه صلوات الله عليه: «إنَّ اللهَ تعالىٰ خَلَقَ العَبدَ للجَنّةِ»، وقوله: «خَلَقَ العَبدَ للنّار»؟

وروى مُحيي السنّة في «معالم التنزيل»، عن مُقاتل وغيره: وفي آخره: «ثُمّ أعادَهُم جَميعاً في صُلْبِه، فأهلُ القُبُورِ مَحبُوسُون، حَتّىٰ يَخرُجَ أهلُ المِيثاقِ كُلُّهُم مِنْ أصلابِ الرِّجَالِ، وَأرحَامِ النِّسَاءِ»[2].

فإذن لا معنىٰ لقولهم: اقتصر في الحديث على ذكر آدمَ دونَ الذرّيّة، لأنه هو الأصل، فاكتفى بذكر الأصل عن الفرع.

وأمّا الحديثُ الثاني: فتمامُه على ما أوردَه صاحبُ «جامع الأصول» عن الترمذي، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَـمّا خَلـقَ الله آدَم، مَسَحَ ظَهرَه، فَسَـقَط مِن ظَهره كُـلُّ نَسَمَةٍ هُو خالِقُها مِن ذُرِّيَّـتِه إلىٰ يَوم القِيامَة، وجَعَل بَينَ عَينَي كُـلِّ إنسان مِنهُم وبِيصاً

---

(١) «مصابيح السنّة» للبغوي (١: ٩)، أمّا المصادر المذكورة فقد سبق تخريج الحديث منها.

(٢) «معالم التنزيل» (٣: ٢٩٨).

....

مِن نُور، ثُمَّ عَرَضَهُم عَلىٰ آدَم، فقال: أي رَبّ، مَن هؤلاء؟ فقال: هؤلاء ذُرِّيَّتُكَ»[١] إلى آخر الحديث.

وأما الحديثُ الثالث: فقد أخرجَه الإمام أحمدُ بنُ حنبل في «مسندِه» عن ابن عباس أيضاً، كما ذكر من غير زيادة ولا نقصان.

فإذا تقرّرَ هذا فالواجبُ على المُفسّر المُحقّق ألّا يُفسِّر كلامَ الله المَجيدَ برأيه[٢]، إذا وجد من جانب السلفِ الصالح نقلاً مُعتَمَداً، فكيف بالنصّ القاطع من جَناب حضرةِ الرسالة صلواتُ الله على صاحبها؟ فإنّ الصحابيَّ رضي الله عنه إنّما سأله ﷺ عما أشكَل عليه من معنى الآية: أنّ الإشهادَ هل هو حقيقةٌ أم لا؟ والإخراجَ والمقاوَلةَ بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾: أهُما على المُتعارَف أم على الاستعارة؟ فلمّا أجابَه صلواتُ الله عليه بما عَرَف منه ما أراده، سكت، لأنه كان بليغاً، ولو أشكل عليه من جهة أخرى لكان الواجبُ بيانَ تلك الجهة.

وكذا فهم الفاروقُ رضوانُ الله عليه.

وأمّا قولهم[٣]: لو كان المرادُ أنه أخرجَ من ظهر آدم، لَما قال: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾، بل يجب أن يقول: من ظَهرِه وذرّيّته، فجوابه: أنّ المرادَ آدمُ وذرّيّته، لكن غلَّبَ إخراجَ الذراري من أصلاب أولاده نَسْلاً بعدَ نسل حينئذٍ علىٰ ذراري نفسه، لأنّ الكلامَ في الاحتجاج علىٰ

---

(١) «جامع الأصول» (٢: ١٤١)، وقد فسر النَّسَمة بالنفس، وكل دابّة فيها روح فهي نسمة، ولكن لا يخفىٰ أن المقصود هنا هو الإنسان لا غير. وقد سبق تخريج الحديث من مصادره، وحكم الترمذي عليه بأنه حسن صحيح.

(٢) هذا تعريض بالزمخشري لتفسيره الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ ...﴾ برأيه.

(٣) يعني المعتزلة، وقد سبق إيراد ذلك ضمن نص منقول من «التفسير الكبير» للرازي (١٥: ٤٧).

....

الأولاد بشهادةِ قوله: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾، ونحوه، لكن في إرادة الامتنان، قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: ١١] والمراد آدم، بقرينة قوله: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ [الأعراف: ١١].

ويَعضُدُه ما رواه الواحدي عن الكِسائيّ أنه قال: «لم يذكر ظهرَ آدم، وإنّما أُخرِجوا جميعاً من ظهرِه، لأن الله تعالىٰ أخرجَ ذرّيةَ آدمَ بعضَهم من ظهور بعض، علىٰ نحو ما يتوالدُ الأبناءُ من الآباء، واستغنَىٰ عن ذِكرِ ظهر آدم، لـما عُلِمَ أنهم كلَّهم بَنُوه، وأُخرِجوا من ظهرِه»[1].

وقال الإمام المحقِّقُ قُطبُ الدين الشيرازيُّ رحمه الله[2]: «ظواهرُ ألفاظ الآية، من قوله: ﴿مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ دافعةٌ لظاهر حديث عمرَ رضي الله عنه، لكن لَمّا كان المعلومُ المُقرّرُ في بداية العقول أنّ بني آدمَ من ظهر آدم، فيكون كلُّ ما أُخرج من ظهور بني آدم في «لا يزال» إلى يوم القيامة هم الذَّرّ، قد أخرجَهم الله تعالىٰ في الأزل عن صُلبِ آدم، وأخَذ منه الميثاق الأول[3]، ليعرفَ منه أن هذا النسلَ الذي يخرجُ في «لا يزال» من أصلاب بني آدم هو الذرُّ الذي أُخرج في الأزل من صُلبِ آدم، وأُخِذَ منه الميثاقُ الأول، وهو المَقاليُّ الأزليّ، كما أُخِذَ منهم في «لا يزال» بالتدريج، حين أخرجوا الميثاق الثاني، وهو الحاليّ «اللا يزاليّ»».

---

(١) «الوسيط» للواحدي (٢: ٤٢٥)، وهو في «معالم التنزيل» (٣: ٢٩٩).

(٢) محمود بن مسعود الفارسي، قطب الدين الشيرازي، قاض، عالم بالعقليات، مفسّر. من كتبه: «فتح المنّان في تفسير القرآن». مات سنة ٧١٠هـ. انظر: «الدرر الكامنة» (٥: ١٠٨)، و«بغية الوعاة» (٢: ٢٨٢) و«مفتاح السعادة» (١: ٢٠٤).

(٣) سيأتي بيانه وبيان الميثاق الثاني فيما يلحق من الكلام، فالأول هو الأزَليّ الذي لا يهتدي إليه العقل، ولا بد فيه من التوقف، والثاني هو ما يهتدي إليه العقل.

....

والحاصل: أنّ اللهَ تعالىٰ لَمّا كان له ميثاقان مع بني آدم؛ أحدُهما: يهتدي إليه العقل مِن نصْبِ الأدلة الباعثةِ علىٰ الاعتراف الحالي، وثانيهما: المَقاليُّ الذي لا يهتدي إليه العقل، بل يتوقّفُ علىٰ توقيف واقف علىٰ أحوال العباد من الأزل إلى الأبد، كالأنبياء عليهم السلام، أراد النبي ﷺ أن يُعْلِمَ الأمّةَ ويُخبرَهم أنّ مِن وراء الميثاق الذي تهتدون إليه بعقولِكم ميثاقاً آخَرَ أزليّاً، فقال ما قال مِن مسْح ظهرِ آدمَ في الأزل، وإخراج الذرّيّة والميثاقِ الآخَر».

وقلت: هذا كلام عالي الدرجة لا مزيدَ عليه، وهو قريبٌ من الأسلوب الحكيم، علىٰ منوال قوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ﴾ [البقرة: ٢١٥][(١)]، سألوا عن بيان ما يُنفقون، وأجيبوا ببيانِ المَصرف، وضُمِّنَ بيانَ ما يُنفقون. كذا هاهُنا: سألَ الصحابيُّ عن بيانِ الميثاقِ الحالي، فأجيبَ عن المقالي، وضُمِّنَ فيه الحاليُّ علىٰ ألطفِ وجه. والله أعلم.

قلت: مَنْ أبىٰ هذا التقرير قَـرُب أن يَعْدِل إلى مذهب أهل العَدْل، وأمّا الترديد الذي نقله الشيخُ التوربشتي رحمه الله وهو أن «قالوا: إن كان هذا الإقرارُ عن اضطرار» إلى قوله: «وإن كان عن استدلال»[(٢)] إلى آخِره، فخلاصته أنه يلزمُ ألا يكونوا محجوجين يومَ القيامة. فجوابه: أنهم إذا قالوا: شَهِدْنا يومئذ، فلمّا زال علم الضرورة، ووُكِلْنا إلى آرائنا، كان كذا، كذبوا؛ فإنّكم ما وكلتم إلى آرائكم، بل أرسَلْنا رسلنا تَتْرىٰ لتُوقِظَكم عن سِنةِ الغفلة.

---

(١) والشاهد فيها قوله: ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ﴾ إذ كان المتوقع أن يكون الجواب بيان الإنفاق تبعاً للسؤال، لكنه جاء لبيان المصرف، علىٰ الأسلوب الحكيم. وقريب من هذا، حديث الرسول ﷺ الذي رواه عمر، إذ كان المتوقّع الإجابة عن سؤال الصحابي مباشرة، لكنه أجيب بغير ذلك على طريقة الأسلوب الحكيم.

(٢) سبق عند الطيبي نقلُ كلام التوربشتي، وانظر: «حاشية الكازروني» (٣: ٣٤).

....

قال المصنفُ في قوله تعالىٰ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]: «الرسلُ مُنبِّهون عن الغفلة، وباعثونَ علىٰ النظر».

وقال مُحيي السنّة: «فإن قيل: كيف تَلزَمُ الحجّةُ واحداً لا يذكرُ ذلك الميثاق؟ قيل: قد أوضحَ اللهُ الدلائل علىٰ وَحدانيته، وصِدْق رسلِه فيما أخبَروا، فمن أنكرَه كان مُعانِداً ناقضاً للعهد، ولزمَته الحجّة، وبنسيانهم، وعدم حِفظِهم لا يَسقُطُ الاحتجاجُ بعدَ إخبار المُخبِرِ الصادق»(١).

وأمّا الجواب عن قولهم: «فلهم أن يقولوا: أُيِّدْنا يومَ الإقرار بتوفيق وعصمة، وحُرِمْناهما من بعد»، فهو أن يقال: إن هذا مُشترَكُ الإلزام، لأنه إذا قيل لهم: ألم نَمنَحْكم العقولَ والبصائر؟ فلهم أن يقولوا: فإذا حُرِمْنا اللُّطفَ والتوفيق، فأيّ منفعةٍ لنا في العقل والبصيرة؟

ولنختم الكلامَ بما ورد عن أرباب الكشف، وأصحاب العِرفان.

روى الشيخ العارفُ أبو عبد الرحمن السُّلَميُّ في «الحقائق» عن بُنَانَ(٢) أنه قال: «انتَخَبهم للولاية، واستخلصَهم للكرامة، وجعل لهم فتوحاً في غَوامض غُيوب الـمَلَكُوت، أوجدهم لديه في كون الأزل، ثم دعاهم فأجابوا سِراعاً، وعرَّفَهم نفسَه حين لم يكونوا في صورة الإنسية، ثم أخرجَهم بمشيئتِه خلْقاً، وأودعَهم في صُلبِ آدم، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، فأخبرَ أنه خاطبَهم وهم غير موجودين إلا بوجودِه لهم، إذ كانوا واجدين للحقِّ في غير وجودِهم لأنفسهم، وكان الحقُّ بالحقِّ في ذلك موجوداً»(٣).

---

(١) «معالم التنزيل» (٣: ٣٠٠).

(٢) أبو الحسن بُنان بن محمد الحمّال، من المتصوفة. مات بمصر سنة ٣١٦هـ.

انظر: «طبقات الصوفية» (٢٩١)، و«تاريخ بغداد» (٧: ١٠٠)، و«المنتظم» (٦: ٢١٧).

(٣) «حقائق التفسير» للسلميّ (١: ٢٥٠).

....

وأنشد السُّلَميُّ لبعضِهم:

لو يَسْمعون كما سمعْتُ كلامَها خَرُّوا لِعَزَّةَ رُكَّعاً وسُجُودا[١]

وقال شيخُنا شيخ الإسلام أبو حفص السُّهْرَوَرْدِي[٢]، قُدِّس سرُّه:

«ورد في الحديث أنّ الله مَسَحَ ظَهْرَ آدَمَ، وأخْرَجَ ذرّيته منه، كهيئة الذَّرّ، استخْرج الذرَّ من مَسامِّ شعر آدم، فخرج الذرُّ كخُروج العَرَق، وكان ذلك ببَطْن النَّعْمان: وادٍ بجنْب عَرَفة، بين مكّة والطائف»[٣].

وقلت: والغرضُ من هذا الإطناب الإرشادُ إلى التفادي عن القول في الأحاديث الصادرة عن مَنبع الرسالة عن الثقات، بأنها متروكة العمل، لعِلّةِ كونها من الآحاد، لأن ذلك يؤدّي إلى سَدِّ بابِ كثيرٍ من الفتوحات الغَيبية، ويَحرِم قائلَه من عظيم مِنَح الإلـٰهية.

روى الإمام أبو بكر البيهقيُّ رحمهُ اللهُ في «المَدخَل»[٤] عن الشافعيّ رضي الله عنه: الذين لقيناهم كلُّهم يُثبِتون خبرَ واحدٍ عن واحدٍ عن النبي ﷺ، ويجعلونَه سُنَّةً، حُمِدَ من تَبِعَها، وعِيبَ مَن خالَفها. وقال الشافعي: مَن فارق هذا المذهبَ كان عندنا مُفارقاً لسبيلِ أصحابِ رسول الله ﷺ وأهل العِلم بعدَهم، وكان من أهل الجَهالةِ. وقال الشافعي: فمهما قلتُ من قولٍ أو أصَّلتُ من أصلٍ فيه عن رسول الله ﷺ خلافُ ما قلتُ، فالقولُ ما قال رسول الله ﷺ.

---

(١) البيت لكثيّر عزّة في «ديوانه»، ص٤٤٢.

(٢) صاحب «عوارف المعارف» سبقت ترجمتُه.

(٣) قاله في «عوارف المعارف» (١ : ١١). ولتمامِ الفائدة انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١ : ٥٨٤).

(٤) يعني: «المدخل إلىٰ السنن الكبرى»، ولم أقف عليه فيه.

....

وهو قولي. قال: وجعل يُردِّدُه. وروى الدارميّ[1] عن الشّعبيّ قالَ: ما حدّثك هؤلاء عن النبي ﷺ فخُذْ به، وما قالَهُ برأيهِ فألْقِهِ في الحُشّ[2].

رُوِّينا عن أبي داود، والترمذي، وابن ماجه، والدارِميّ، عن الـمِقْدام[3]، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إنّي أُوتيتُ الكِتابَ ومِثلَه معهُ، ألا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبعانُ علىٰ أريكَتِهِ يَقول: عَليكُم بهذا القُرآن، فما وجَدتُم فيه من حَلالٍ فأحِلُّوهُ، وما وجدتُم فيه مِن حَرامٍ فَحَرِّمُوه»[4]. وفي رواية: «وإنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ الله ﷺ كَما حَرَّمَ اللهُ» الحديث.

وفي «جامع الأصول» عن رَزِينٍ العَبْدَرِيّ، عن أبي رافع[5]، أنّ رسول الله ﷺ قال: «لا أعرِفَنَّ الرجُلَ منكُم يَأتيه الأمر مِن أمري أنا أمَرتُه، أو نَهَيتُ عنه، وهو مُتّكئٌ علىٰ أريكَتِه، فيقُولُ: ما نَدري ما هذا؟ عندَنا كتابُ الله، وليسَ هذا فيه»[6] الحديثَ.

وقد روى الترمذي وأبو داودَ وابنُ ماجه عنه نحوه، وروايتهم أقصَر[7].

---

(١) في «سننه» (٢٠٦).

(٢) من قوله: «روىٰ الإمام أبو بكر البيهقي» إلىٰ هنا، أثبته من (ط).

(٣) هو: المقدام بن معد يكرب، يكنىٰ أبا كريمة، من صحابة النبي ﷺ، مات سنة ٨٧هـ.
انظر: «الإصابة» (٦: ٢٠٤) وفيه «المقداد» وهو تحريف، و«أسد الغابة» (٥: ٢٥٤)، و«الاستيعاب» (٤: ١٤٨٢).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٦٠٦) والترمذي (٢٦٦٤) وابن ماجه (١٢) والدارمي (٦٠٦) وغيرهم، وصحّحه ابن حبّان (١٢) وفيه تمامُ تخريجه.

(٥) هو أبو رافع مولىٰ رسول الله ﷺ، واسمه مختلف فيه، إلّا أن المشهور أن اسمه «أسلم». مات بالمدينة في خلافة عثمان رضي الله عنه، وفي ذلك خلاف أيضاً. انظر: «أسد الغابة» (١: ١٠١).

(٦) «جامع الأصول في أحاديث الرسول» (١: ٢٨٣).

(٧) أخرجه الترمذي (٢٦٦٣) وأبو داود (٤٦٠٧) وابن ماجه (١٣) وانظر تمام تخريجه في «مسند الإمام أحمد» (٢٣٩١٢).

[﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ * وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ١٧٥ - ١٧٦]

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾: على اليهودِ ﴿نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾: **هو عالِمٌ من عُلماءِ بني إسرائيل**، وقيل: مِن الكنعانيين، اسمُه بَلعَمُ بنُ باعوراء؛ أُوتيَ عِلمَ بعضِ كُتُبِ الله، ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾: مِن الآياتِ، **بأنْ كَفَرَ بها ونَبَذَها وراءَ ظهرِه**، ﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾: **فلَحِقَه** الشيطانُ وأدرَكَه وصارَ قرينًا له، ....

وقلت: والذي أقضي منه العَجَب أنّ الشيخَ شهابَ الدين التوربشتي كيفَ نقلَ كلامهم هذا، وقرَّره، ولم يردَّ عليه، مع رسوخ علمِه، وعلوِّ مرتَبتِه! والله أعلم.

قولُه: (**هو عالِمٌ من عُلماءِ بني إسرائيل**): روى محيي السنّة عن مجاهد: هو بَلْعامُ بنُ باعِر. وعن ابن عباس: هو بَلعامُ بنُ باعوراء، كان من بني إسرائيل. ورُوِي عن ابن طلحة[(١)] رضي الله عنه أنه كان من الكنعانيين[(٢)].

قولُه: (﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾... **بأنْ كَفَرَ بها، وَنَبَذَها وراءَ ظهرِه**): هذه مُبالَغة، لأن السلخَ حقيقةً: كشْطُ الجلد عن المسلوخ، وإزالتُه عنه بالكلّيّة.

قال الإمام: «انسلخ، أي: خرج. يُقالُ لكلِّ من فارقَ الشيء بالكلّيّة: انسلخَ منه»[(٣)].

قولُه: (﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾: **فلَحِقَه**)، **الجوهري**: «أتبعت القومَ ـ علىٰ «أفعَلْت» ـ: إذا كانوا قد سبقوك، فلحقتَهم. وأتبَعْتُ أيضاً غيري. يقال: أتبَعْتُه الشيءَ فتَبِعه».

---

(١) في «المعالم»: «عليّ بن أبي طلحة» وهو الصحيح، تابعيّ، يكنّىٰ أبا الحسن. له رواية في الحديث. مات سنة ١٤٣هـ. انظر: «ميزان الاعتدال» (٣: ١٣٤)، و«تهذيب التهذيب» (٧: ٣٣٩).

(٢) «معالم التنزيل» (٣: ٣٠١).

(٣) «مفاتيح الغيب» (١٥: ٤٥).

أو: فأَتْبَعَه خُطواتِه. وقُرِئ: «فاتَّبَعه»؛ بمعنىٰ: فتبِعَه، ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾: فصارَ من الضالِّينَ الكافرين. رُوي: أنّ قومَه طَلَبوا إليه أنْ يَدعُوَ علىٰ موسىٰ ومَن معَه، فأبىٰ وقال: كيفَ أَدْعو علىٰ مَنْ معه الملائكة، فألَحّوا عليه ولم يَزالوا به حتىٰ فعَل، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾: لَعظَّمْناه ورفَعْناه إلى مَنازلِ الأبرارِ من العلمـاءِ بتلكَ الآيات، ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾: مالَ إلى الدنيا ورَغِبَ فيها. وقيل: مالَ إلى السَّفالة. ....

قولُه: (رُوي: أنّ قومَه طَلَبوا إليه أنْ يَدعُوَ علىٰ موسىٰ): عن محيي السنّة، عن ابن عباس، والسُّدّي، وغيرهما، «أن موسىٰ، لمّا قصدَ حرب الجبّارين، ونزل أرضَ بني كَنعانَ من[1] أرض الشام، أتىٰ قومُ بَلْعَام [إلى بَلْعم][2]، وكان عندَه اسمُ الله الأعظم، فقالوا: إنّ موسىٰ رجُل حديد، ومعه جنودٌ كثيرة[3]، وإنه قد جاء ليُخْرِجنا مِن ديارنا، ويَقتلَنا، وأنت رجُل مُجابُ الدعوة، فاخرُج وادعُ الله أن يرُدَّهُم عنا. فقال: وَيلَكُم، نبيُّ الله، ومعه الملائكةُ والمؤمنون، كيف أدعو عليهم وأنا أعلمُ من الله ما أعلم، وإنّي إن فعلتُ هذا ذهبت دُنْياي وآخرتي؟! فراجَعوه، وألَحُّوا عليه، فلم يزالوا يتضرّعون إليه، حتى فَتنوه»[4].

قولُه: (﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾: مال إلى الدنيا، ورَغِبَ فيها)، النهاية: «أخلَد إليها، أي: ركَن إليها، ولَزِمَها». وقال الزجّاج: «يقال: أخلدَ فلانٌ إلى كذا وكذا، وخَلَد - والأوّل أكثر - أي: سَكَن إلى لذّاتِ الأرض»[5].

قولُه: (وقيل: مالَ إلى السَّفالة) الرواية بفتح السين.

---

(١) قوله: «بني كنعان من» سقط من (ح).

(٢) تكملة من «معالم التنزيل».

(٣) في (أ) وفي «المعالم»: «كثير»، وكلاهما جائز.

(٤) «معالم التنزيل» (٣: ٣٠١).

(٥) «معاني القرآن وإعرابه» (٢: ٣١٦).

فإنْ قلتَ: كيف عَلَّقَ رَفْعَه بمشيئةِ الله تعالىٰ ولم يُعَلِّقْ بفعلِه الذي يَسْتَحِقُّ به الرفع؟ قلتُ: المعنى: ولو لَزِمَ العَمَلَ بالآياتِ ولم يَنسلخْ منها لَرَفَعْناه بها؛ وذلك أنَّ مشيئةَ الله تعالىٰ رَفْعَه تابعةٌ للزُومِه الآيات، فذُكِرَت المشيئة. والمُرادُ: ما هي تابعةٌ له ومُسبَّبَةٌ عنه، كأنه قيل: ولو لَزِمَها لرَفَعْناه بها. **ألا تَرى إلىٰ قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، فاستَدرَكَ المشيئةَ بإخلادِه الذي هو فِعْلُه، فوَجَبَ أنْ يكونَ ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ في معنىٰ ما هُو فِعْلُه**، ولو كانَ الكلامُ علىٰ ظاهرِه لَوَجبَ أنْ يُقال: ولو شِئنا لَرَفَعْناه ولكنّا لم نَشَأ.

الجوهري: «السُّفالة، بضم السين: نقيضُ العُلوّ، وبالفتح: النذالة».

الأساس: «ومن المجاز: سَفِلَت مَنْزِلتُه عند الأمير. وقد سَفُل في النسب والعِلْم».

قولُه: (**مالَ إلىٰ الدنيا ورَغِبَ فيها**) مُقابلٌ لقولِه: «رفعْناه إلىٰ منازل الأبرار»، لأنّ الدنيا ليست بمنازلهم، لقوله: «فاعبُروها، ولا تَعمُروها»[1].

وأمّا قوله: (**مال إلىٰ السَّفالة**) فبالنظر إلىٰ لفظ «رفعْنا».

قولُه: (**ألا ترى إلىٰ قولِه تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، فاستَدرَكَ المشيئةَ بإخلادِه الذي هو فِعْلُه، فوَجَبَ أنْ يكونَ ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ في معنىٰ ما هُو فِعْلُه**)، قال القاضي: «إنّما علَّقَ رفعَه بمشيئةِ الله، ثم استدركَ عنه بفعل العبد، تنبيهاً علىٰ أن المشيئةَ سببٌ لفعلِه الموجِبِ لرفعِه، وأنّ عدمَه دليلُ عدمِها دلالةَ انتفاءِ المُسبَّبِ علىٰ انتفاءِ سببه، وأنّ السببَ الحقيقيَّ هو المشيئة، وأنّ ما نُشاهِدُه من الأسبابِ وسائطُ مُعتَبرةٌ في حصول السبب، من حيث إنّ المشيئةَ تعلَّقَت به.

---

(١) هذا من قولِ المسيح عليه السلام، ذكره الإمام الغزالي في «إحياء علوم الدين» (٤: ٢٢٣).

....

وكان من حقِّه أن يقول: ولكنه أعرضَ عنها، فأوقعَ موقعِه ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، مبالغةً وتنبيهاً علىٰ أنّ ما حملَه عليه هو هواه، وأن حُبَّ الدنيا رأسُ كل خطيئة»[1].

هذا تمام كلام القاضي. وتلخيصُه: أنّ قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا ﴾ مُجْرَى علىٰ ظاهره، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ محمولٌ علىٰ التأويل، علىٰ عكس ما فعلَه المصنف.

ثم الواجبُ علينا أن نُبَيِّنَ وجْهَ الرُّجحانِ من غيرِ التعصُّب، فنقول، والله أعلم بمُرادِه من كلامه: إنه تعالىٰ لـمّا قال: ﴿ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ بمعنى: نحن فعلْنا إيتاءَ الآيات، فعقَّبها هو[2] بفعل الانسلاخ، تَوهُّماً منه أنه مستقلٌّ في إيجاد الفعل، فقيل دفعاً لذلك التوهُّم: لو شئنا أن نَرفعَه بالآياتِ إلى المراتبِ العليّةِ لفعلْنا، فلا يحصلُ منه الانسلاخُ إذاً، لكن تَعلَّقت مشيئتُنا بانحطاطِه إلىٰ الأرض، فحصلَ منه الانسلاخ، فوضع موضعَه ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ ليُطابقَ الرفع. وإنّما جاءَ قولُ المصنف: «ولكنه أخلَدَ إلى الأرض، فحَطَطْناه»، على عكس هذا التقدير: لأنه جعلَ مشيئةَ الله تابعةً لفعل العبد، فعَدِمَ التوفيق، فأخطأ في التلفيق.

وأمّا قولُه: «ولو كانَ الكلامُ علىٰ ظاهرِه، لَوَجبَ أنْ يُقال: ولو شِئنا لَرَفَعْناه بها[3]، ولكنّا لم نَشَأ»، فجوابه: أنك لـمّا جعلَت المشيئةَ ابتداءً تابعةً للزوم هذا الإنسان الآيات، لزِمَك هذا، فاجعل لزومَه الآياتِ تابعاً للمشيئة، كما فعلْنا، لتنظرَ كيفَ يجيء الكلامُ على سَنَنِه!

---

(١) «أنوار التنزيل» (٣: ٧٣).

(٢) يعني «بلعام».

(٣) كذا في الأصول الخطية، وليس في «الكشاف»: «بها».

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾: فِصفَتُه التي هي مَثَلٌ في الخِسَّةِ والضَّعَةِ كصِفةِ الكلبِ في أخسّ أحوالِه وأذلّها، وهي حالُ دوامِ اللَّهْثِ به واتصالِه، سواءٌ حُمِلَ عليه ـ أي: شُدَّ عليه وهُيِّجَ فطُرِدَ ـ أو تُرِكَ غيرَ مُتعرَّضٍ له بالحَمْل عليه. وذلك أنّ سائرَ الحيوانِ لا يكونُ منه اللَّهثُ إلّا إذا هُيِّجَ منه وحُرّك، وإلّا لم يَلْهَث، والكلبُ يَتَّصِلُ لَهْثُه في الحالتَيْن جميعًا، وكانَ حقُّ الكلام أنْ يقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، فحَطَطْناه ووَضَعْنا منزلتَه، فوُضِعَ قولُه: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ مَوْضِعَ «فَحطَطْناه أبلغَ حَطٍّ» لأنّ تمثيلَه بالكلبِ في أخسِّ أحوالِه وأذلّها في معنىٰ ذلك.

قولُه: (وكانَ حقُّ الكلام) إلى قولِه: (فحَطَطْناه أبلغَ حَطٍّ): اعلَمْ أن التشبيهَ عُدولٌ عن أصل المعنىٰ، ورَوْمٌ للمُبالغة، فإنك إذا أردتَ المبالغةَ في قولك: «زيدٌ شجاع»، قلت: «زيد كالأسد»؛ لأنك في التشبيه تَقصِدُ محاولة إبراز المُشبَّه في صورةِ المُشبَّهِ به، ليثبتَ في النفس خيالُه، فيكونَ أدخَل في الرَّوعة وآكَدَ في الدلالةِ من أصل المعنىٰ[1].

وهاهُنا الأصل ـ كما قال ـ «حططْناه أبلغ حطّ»، فوضع التمثيل[2] مقامَه، ليُخيِّلَ إلى السامع خَيالاً في غايةِ الضَّعةِ والخِسّة. واللهْث: إدلاعُ اللسان من التنفُّسِ الشديد.

فإن قلتَ: نسبةُ التمثيل إلى أصل المعنىٰ من أي قَبيل هو؟ قلتُ: من قَبيل الكناية[3]، وأخذِ الزُّبْدةِ والخلاصة من المجموع من غير اعتبار مُفرداتِه، كما سيجيء في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧][4].

---

(١) ما ذكره الطيبي ليس تعريفاً للتشبيه، وإنّما هو بيان لبعض أغراضه.

(٢) يعني قوله تعالىٰ: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ...﴾.

(٣) يريد أن التمثيل في الآية يعطي معنى الكناية عن خسة المستكبر على مشيئة الله، وذلّه وهوانه.

(٤) والآية شاهد على أن التخييل فيها كناية عن تصوير عظمة الله، والتوقيف على كنه جلاله وقدْره. انظر تفصيل ذلك في: «الكشاف» (١٣: ٤٣١).

وعن ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما: الكلبُ مُنقَطِعُ الفُؤاد، يَلْهَثُ إنْ حُمِلَ عليه أو لم يُحمَل عليه. **وقيل: معناهُ: إنْ وَعَظْتَه فهو ضالّ، وإنْ لم تَعِظْه فهو ضالّ**، كالكلبِ إنْ طردتَه فسَعىٰ لَهَث، وإنْ تركتَه علىٰ حالِه لَهَث.

قولُه: (**وقيل: معناهُ: إنْ وَعَظْتَه فهو ضالّ**) عطفٌ علىٰ قوله: «فصفته التي هي مثَل في الخسّة». والتمثيل الأول: مُركَّبٌ عقلي، لأنه اعتُبِرَ من المجموع الضَّعةِ والخِسَّة: شَبَّه بِلْعامَ من حيثُ إنه مالَ من المرتبةِ العالية، ومنازلِ الأبرار من العلماء، إلىٰ أسفل السافلين، والميل إلىٰ الدنيا وحُطامِها، بالكلْب في الحالتين معاً. والوجه: هو الزبدةُ والخلاصةُ مِن الضعة والخِسّة. وإليه أشار بقوله: «لأن تمثيله بالكلب في أخسّ أحواله وأذلّها في معنىٰ ذلك» أي: حططْناه أبلغ حطّ.

وعلىٰ الثاني: مركّب وَهْميّ، لأنه توهّمَ في الوجه متعدِّداً[(١)]، وهو عدم تغيير حال الضعة في حالتي الإغراء والترك. وهو المراد من قوله: «إنْ وعظْتَه فهو ضال، وإن لم تعِظْه فهو ضال».

وعلىٰ الثالث ـ وهو قوله: «وقيل: لما دعا بلعم علىٰ موسىٰ» إلىٰ آخره ـ: التشبيهُ مُفردٌ حسّي. وقوله: ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ جملة استئنافية مبيِّنةٌ لحال تشبيه بَلعامَ بالكلب. ولهذا قال: «وجعل يَلهَثُ كما يَلهَثُ الكلب».

والدليل علىٰ أنّ هذا التشبيه مُفرَد، والأول والثاني مُركّبان: سؤالُه بقولِه: «ما محلّ الجملة الشرطية؟» بعدَ تمام التشبيهين. وجوابه: «النصب علىٰ الحال»، ليدخلَ حينئذٍ في حيِّز التشبيهَين، لإرادةِ التركيبِ فيهما.

---

(١) من قوله: «والخلاصة من الضعة والخسة» إلىٰ هنا سقط من (ط).

فإنْ قلتَ: ما محلُّ الجملةِ الشرطية؟ قلتُ: النصبُ علىٰ الحال، كأنه قيل: كمَثَلِ الكلبِ ذليلًا دائمَ الذِّلّةِ لاهِثًا في الحالتَين.

قولُه: (**النصبُ علىٰ الحال، كأنه قيل: كَمثَلِ الكلبِ ذَلِيلاً دائمَ الذِّلّةِ**): قال صاحب «الضوء»: «الشرطيةُ لا تكادُ تقَعُ بتمامِها موقعَ الحال، ولو أُريدَ ذلك لـجُعِلتَ خبراً عن ضمير ما أُريدَ الحال عنه، نحو: «جاءني زيدٌ وهو إن يُسألْ يُعْطِ». فالحال إذن جملةٌ اسمية، والسِّرُّ فيه أنّ الشرطية، لتَصدُّرِها بما يقتضي الصَّدْرية، لا تكادُ ترتبطُ بما قبلَها، إلا أن يكون هناك فَضْلُ قوّة. نَعَمْ، إنّما يجوزُ إذا أُخْرِجَت عن حقيقة الشرط، ثم هي لم تَخلُ مِن إنْ عُطِفَ عليها ما يُناقِضُها أو لم يُعطَف. والأول: حذفُ الواو فيه مُستَمِرّ، نحو: آتيكَ إن تأتِني أو لم تأتِني؛ لأن النقيضَين في مثْل هذا الموضع لا يَبقيان علىٰ معنى الشرط، بل يتحوَّلان إلى معنى التسوية، كالاستفهامَين المُتناقِضَين في قولِه تعالىٰ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦]. وأمّا الثاني: فلا بدَّ فيه من الواو، نحو: آتيك وإن لم تأتني، ولو تَركَ الواوَ لالتَبسَ بالشرطِ حقيقة»[١].

قلت: وإنّما تركَ الواوَ في التنزيل[٢]، لأنه من باب: آتيك إن تأتِني أو لم تأتني، لأنّ المراد: إنْ حُمِل عليه أو لم يُحمَل عليه.

وأمّا قولُه قبل هذا: «سواء حُمِل عليه ـ أي: شُدَّ عليه وهُيِّج فطُرِد ـ أو تُرِك غير متعرِّض له» فهو كما قاله صاحب «الضوء»: «إن النقيضَين في هذا المقام لا يبقَيان علىٰ معنىٰ الشرط، بل يتَحوَّلان إلىٰ معنىٰ التسوية»[٣].

---

(١) «الضوء على المصباح» للإسفراييني (مخطوط بمكتبة الأزهر، رقم خصوصي (٢٢٨)، وعمومي (٢٧١٨٥)، الورقة ٢٨).

(٢) يريد في قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾.

(٣) «ضوء المصباح» (مخطوط)، ورقة ٢٨.

وقيل: لمـّا دَعا بَلْعَمُ علىٰ موسىٰ عليه السلامُ خرجَ لِسانُه فوقعَ علىٰ صَدرِه، وجعَلَ يَلهَثُ كما يَلهَثُ الكلب.

﴿ذَٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ مِن اليهودِ بعدما قَرؤوا نَعْتَ رسولِ الله ﷺ في التوراة، وذِكْرَ القرآنِ المُعْجِزِ وما فيه، وبَشَّروا الناسَ باقترابِ مَبعثِه، وكانوا يَسْتَفتِحونَ به، «فاقْصُصْ» قَصَصَ بَلْعَمَ الذي هو نَحوُ قَصَصِهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيَحْذَرونَ مِثْلَ عاقبتِه، إذا ساروا نَحْوَ سيرته، وزاغوا شِبْهَ زَيْغه، ويَعْلَمونَ أنكَ عَلِمْتَه من جِهةِ الوحي، فيزدادوا إيقانًا بك، وتزدادَ الحجَّةُ لُزومًا لهم.

قولُه: (﴿ذَٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾) يعني: إنّما أتى بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ﴾ عقيبَ تمثيل بَلْعامَ ليُنبِّهَ اليهودَ الذين كذَّبوا رسولَ الله ﷺ بعد ما أوتوا من الآيات، وهو التوراة، وفيها نَعْتُ الرسول ﷺ وذِكْر القرآن، وبشَّروا الناسَ بمَبعثِه، واستفتحوا بنُصرتِه، ثم انسلخوا منها، ومالوا إلى الدنيا، واشتَروا بآيات الله ثمناً قليلاً، وحرَّفوا اسمَه، وكفَروا به، على أنّ حالَهم مِثْلَ حال بَلْعام، حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّة.

وإليه الإشارة بقولِه: «فاقْصُصْ قَصص بَلْعَمَ الذي هو نَحوُ قَصَصِهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾»، قلت: مَن تفكَّر في هذا المَثل، وسائرِ الأمثالِ المضروبة في التنزيل، في حقِّ المشركين والأصنام؛ من بيت العنكبوت[1]، والذباب[2]، تحقَّقَ له أنّ حالَ علماء السوء أسوأُ وأقبحُ من ذلك، فما أنعاه مِنْ مثَلٍ عليهم، وما هم فيه من التهالُك في الدنيا؛ مالِها

---

(١) يشير إلى قوله تعالىٰ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

(٢) يشير إلى قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

....

وجاهِها، والرُّكونِ إلى لذّاتها وشهواتها، ومن متابعةِ النفس الأمّارة وإرخاءِ زِمامها في مَرامها!

وكتبَ شيخُنا شيخ الإسلام شهاب الدين أبو حفص السُّهْرَوَرْدِيُّ، إلى الإمام العلّامة فخر الدين الرازي تغمَّدَهما الله برضوانه: «مَنْ تعيَّن في الزمان لنَشْر العلم، عظُمت نعمةُ الله لديه، ينبغي للمُتيقِّظين(١) الحُذَّاق من أرباب الديانات، أن يُمدّوه بالدعاء الصالح، ليُصَفِّيَ الله تعالىٰ مَورِدَ علْمِه بحقائق التقوىٰ، ومصدرَه من شوائب الهوىٰ، إذ قَطْرةٌ من الهوىٰ تُكدِّرُ بحراً من العلْم، ونوازعُ الهوىٰ المركون في النفوس المستصحبة إياه، من مَحْتِدِها، من العالم السُّفلي، إذا شابت العِلْمَ حطّته من أَوْجِه. وإذا صفَت مصادر العلْم ومَواردُه من الهوىٰ، أمدَّتْه كلماتُ الله التي يَنفَدُ البحر دون نَفادِها، ويبقى العِلْمُ على كمال قوّتِه، وهذه رُتبةُ الراسخين في العلْم، لا المُترسِّمين به، وهم وُرّاثُ الأنبياء: كـرَّ عملُهم على علمِهم، وكرَّ علْمُهم على عملِهم، وتَناوَبَ العلْمُ والعملُ فيهم، حتى صفَت أعمالهم ولطُفت، فصارت مُسامَراتٍ سريّة، ومُحاوراتٍ رُوحية، وتشكّلت الأعمالُ بالعلوم، لمكان لطافتِها، وتشكّلت العلوم بالأعمال، لقوّة فعْلِها، وسرايتها إلى الاستعدادات.

وفي اتّباع الهوىٰ إخلادٌ إلى الأرض، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾، فتطهيرُ نور الفكرة عن رذائل التخيُّلات، والارتهانِ بالمَوهومات، التي اشتركت العقول الصِّغارُ المُداهِنةُ للنفوس القاصرة، وهو من شأن البالغين من الرجال، فتصحب نفوسُهم الطاهرةُ الملأَ الأعلىٰ، فتسرَحُ في مَيادين القُدُس، والنزاهة؛ النزاهةِ من محبّةِ حُطام الدنيا، والفِرار؛ الفرارِ من استحلاء نظر الخَلْق وعقائدِهم، فتلك مَصارعُ الأدوان. فطالِبُ الرفيق الأعْلىٰ مُكـلَّمٌ محدَّث، والتعريفاتُ الإلهية واردةٌ عليه، لمكان علْمِه بصورةِ

---

(١) كذا في (ط)، وفي غيرها من الأصول الخطية: «للمتعظين».

[﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾ ١٧٧]

﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ﴾ **أي: مَثَلُ القَوْم، أو ساءَ أصحابُ مثَلِ القوم**. وقَرَأ الجَحْدَريُّ: «ساءَ مَثَلُ القوم». ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾ إمّا أنْ يكونَ معطوفًا علىٰ ﴿ كَذَّبُواْ ﴾، فيدخلَ في حَيِّزِ الصِّلة، بمعنىٰ: الذين جَمَعوا بينَ التكذيبِ بآياتِ الله وظُلْمِ أنفسِهم، **وإما أنْ يكونَ كلامًا مُنقَطِعًا عن الصِّلةِ**، بمعنىٰ: وما ظَلَموا إلّا أنفسَهم بالتكذيب، وتقديمُ المفعولِ به للاختِصاص، كأنه قيل: وخَصُّوا أنفسَهم بالظُّلْم لم يَتعدَّها إلى غيرِها.

[﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ ١٧٨]

﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ﴾ حَمْلٌ علىٰ اللفظ، و﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ حَمْلٌ علىٰ المعنىٰ.

الابتلاء، واستئصال شأفةِ الابتلاء بصدق الالتجاء، وكثرةِ وُلُوجِه في حَريم القُربِ الإلَهي، وانغماسِه مع الأنفاس في بحار عَينِ اليقين، وغسْلِه كشْفَ دلائل البرهان بنورِ العِيان، والبرهان للأفكار، والعِيان للأبرار» إلى آخره، والله أعلم.

قولُه: (**أي: مَثَلُ القَوْم، أو ساءَ أصحابُ مثَلِ القوم**) يريد: أنه لا بدَّ أن يكون المخصوص بالذمّ[1] مطابقاً للفاعل، والفاعلُ هاهُنا مُضمَر مميَّزٌ بـ﴿مَثَلًا ﴾، و﴿ٱلْقَوْمُ ﴾ لا يطابقه، فيقدّر المضافُ إما قبلَ ﴿ٱلْقَوْمُ ﴾ وإما قبلَ ﴿مَثَلًا ﴾ ليطابقه.

قولُه: (**وإما أنْ يكونَ كلامًا مُنقَطِعًا عن الصِّلةِ**) وعلى هذا الكلام[2] تذييلٌ وتأكيد لمضمون الجملة.

قولُه: (**﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ﴾ حَمْلٌ على اللفظ، و﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ حَمْلٌ على المعنىٰ**):

---

(١) قوله: «بالذم» زيادة من (أ).

(٢) يعني قوله: ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾ ـ على المعنى الثاني ـ تذييل غير جارٍ مجرىٰ المثل، لتأكيد معنىٰ الجملة قبله.

....

قال القاضي: «في هذا[١] تنبيه على أن المُهتدين كواحد، لاتّحادِ طريقِهم، بخلاف الضالّين. والاقتصارُ في الإخبار عمّن هداه الله بـ ﴿ٱلْمُهْتَدِى﴾ تعظيمٌ لشأن الاهتداء، وتنبيهٌ على أنه في نفسه كمالٌ جَسيم، ونفعٌ عظيم، لو لم يحصلُ له غيرهُ لكفاه، وأنه المستلزِم للفوز بالنِّعم الآجلة»[٢].

وقال: «الآية تصريحٌ بأن الهدى والضلالةَ من الله، وأنّ هِدايةَ الله تختصُّ ببعضٍ دونَ بعض، وأنها مُستلزمةٌ للاهتداء»[٣].

وقلت: الآيةُ تذييلٌ للتمثيلَين وتأكيد، لأنّ المشيئةَ هي السببُ في فعل العبدِ مِن الاهتداء والضلال، وأنّ لزوم «بلْعام» الآياتِ تابعٌ لمشيئة الله، وأنّ الكلامَ فيه مُـجْرىً على ظاهره.

والآيةُ التالية المُصدَّرة بالقسمية تذييلٌ لقصة الفِرقة الضالّة بعدَ عدٌ قبائحهم، وتسجيلٌ بأنهم لا يؤمنون، تسليةً لرسول الله ﷺ ليُعْرِض عنهم، ويُقْبِلَ إلى من يُجدِي به الإنذار ويَنْجعُ فيه الوعظ. يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٨١]، أي: دع هؤلاء الذين يُـحرّفونَ كلام الله، ويميلون بأسمائه الحسنىٰ إلىٰ التأويل الزائغ، واشتغل بأُمّتك الذين يَتمسّكون بكتاب الله، ولا يُلحِدون في أسمائه الحسنىٰ، ولا يتّبعون ما تشابهَ منها. يدلُّ عليه ما رواه المصنف: «هذه لكُم، وقَد أُعْطيَ القَومُ بينَ أيديكُم مِثلَها».

ويدلُّ علىٰ أنّ هذا الكلامَ تذييلٌ لقصةِ اليهود: قولُه: «والمراد: وصفُ حال اليهود في عِظَم ما أقدَموا عليه، وأنهم من جملة الكثيرين الذين لا يكادُ الإيمان يتأتّى منهم».

---

(١) يعني في إفراد ﴿ٱلْمُهْتَدِى﴾ وجمع ﴿ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾.

(٢) «أنوار التنزيل» (٣: ٧٦).

(٣) المصدر السابق (٣: ٧٦).

[﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ ١٧٩]

﴿كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ هُم المطبوعُ على قلوبِهم الذينَ علِمَ اللهُ أنه لا لُطفَ لهم، وجَعَلَهم في أنَّهم لا يُلقونَ أذهانَهم إلى معرفةِ الحقّ، ولا يَنْظرونَ بعيونِهم إلى ما خلَقَ اللهُ نظَرَ اعتبار، ولا يَسْمَعونَ ما يُتلىٰ عليهم من آياتِ الله سماعَ تدبُّر، كأنَّهم عُدِموا فَهْمَ القلوب، وإبصارَ العُيونِ، واستماعَ الآذان، وجَعَلَهم ـ لإغْراقِهم في الكفر، وشدّةِ شكائِمِهم فيه، وأنه لا يأتي منهم إلّا أفعالُ أهلِ النّارِ ـ مخلوقينَ للنار، دلالةً على توغُّلِهم في المُوجِبات، وتمَكُّنِهم فيما يُؤهِّلُهم لدخولِ النار. ومنه كتابُ عمرَ رضيَ اللهُ عنه إلى خالدِ ابنِ الوليد: «بلغَني أنَّ أهلَ الشام اتَّخذوا لك دَلُوكًا عُجِنَ بخَمْر، وإنّي لأظنُّكم آلَ المُغيرةِ ذَرْءَ النار». ويُقالُ لمن كانَ عَريقًا في بعضِ الأمور: ما خُلِقَ فُلانٌ إلّا لكذا. والمُرادُ وَصْفُ حالِ اليهودِ في عِظَمِ ما أقدموا عليه مِن تكذيبِ رسولِ الله ﷺ، معَ عِلمِهم أنه النبيُّ الموعود، وأنَّهم مِن جُملةِ الكثيرِ الذينَ لا يَكادُ الإيمانُ يتأتّىٰ منهم، كأنهم خُلِقوا للنار.

قولُه: (كتابُ عمرَ رضيَ الله عنه)، النهاية: «الدَّلوك، بالفتح: اسمٌ لِما يُتَدلَّك به من الغُسولات، كالعَدس والأُشنان(١) والأشياء المُطيَّبة».

قولُه: (عريقاً في بعض الأمور)، الأساس: «فلان مُعرِقٌ في الكرمِ أو اللؤم، وهو عريقٌ فيه».

قولُه: (وأنَّهم مِن جُملةِ [الكثيرِ] الذينَ) عطفٌ على قوله: «وصْف» أو «عِظَم ما أقْدموا»، ومحلُّ قوله: «كأنهم خُلِقوا للنار»: إما نصبُ حال من الضمير في خبر «أنّ» بمعنىٰ: مُشبَّهين. وإما رفعُ خبرٍ بعدَ خبر، وفي كلامه أنهم ما خُلقوا للنار حقيقة، وأنّ المرادَ من قوله تعالىٰ:

---

(١) والأشنان ـ بضمّ الهمزة وبكسرها ـ: حَمْضٌ له رائحة طيبة تغسل به الأيدي. انظر: «لسان العرب» (١: ٨٦) مادة (أشن).

....

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ الإغراقُ في وصفهم به. وهو مخالفٌ للظاهرِ والأحاديث الواردة في الباب؛ منها ما رواه الإمامُ أحمد بن حنبلَ في «مسنده»، عن عبد الرحمن بن قتادة[1]، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله خَلَقَ آدَم، ثُمَّ أخذَ الـخَلقَ مِن ظَهره، فقال: هؤلاء في الجنَّةِ ولا أُبالي، وهؤلاءِ في النَّارِ ولا أُبالي». قال قائل: فعلى ماذا نعمل؟ قال: «على موافقةِ القدَرِ»[2].

ومنها ما رُوِّينا عن مالك وأحمدَ والترمذيِّ وأبي داود، عن عمر رضي الله عنه: الحديث السابق، عند قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾[3] [الأعراف: ١٧٢].

وغيرُ مُوافقٍ للنصِّ القاطع، والنظم الفائق، فإنّ قولَه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ كالتفريع على تذييل قصة الفِرقة الضالّة، المُشبَّهةِ بـ«بلعام».

وموقعُ قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ مع ما قبله: موقعُ قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ﴾ [البقرة: ٧][4] مع ما قبله، وفصَّل ما نحنُ بصدَدِه عليه أنه مصـدَّرٌ بالجملة القسَمية، أنّ المذكورات هاهُنا مُستقلّةٌ في كونها جُملاً صِراحاً، واسميّةٌ مكرّرةُ الجار والمجرور، والاستئنافُ

---

(١) صحابي روايته قليلة، وهو شامي، انظر: الاستيعاب (٢: ١٥٨)، و«أسد الغابة» (٣: ٤٨٩)، و«الإصابة» (٤: ٣٥٢).

(٢) «مسند الإمام أحمد» (١٧٦٦٠) وأخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٢٠٤٥) والحاكم في «المستدرك» (١: ٣١) وصحّحه ابن حبان (٣٣٨) وهو حديثٌ صحيحٌ لغيره، وانظر تمامَ تخريجه في «مسند أحمد».

(٣) سبق تخريجه.

(٤) وما قبله هو: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ [البقرة: ٦]، والشاهد في الآية السابقة أنها تذييل للتي قبلها، كما في الآية (١٧٩) من سورة الأعراف.

﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ في عَدَمِ الفقهِ والنظرِ للاعتبارِ والاستماعِ للتدبّرِ، ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ مِن الأنعامِ عن الفقهِ والاعتبارِ والتدبّرِ، ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾: الكاملونَ في الغَفلةِ، وقيل: الأنعامُ تُبصِرُ منافعَها ومَضارَّها، فتلزمُ بعضَ ما تُبصِرُه، وهؤلاءِ أكثرُهم يَعْلَمُ أنه مُعانِدٌ فيُقْدِمُ علىٰ النارِ.

[﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ١٨٠]

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ التي هيَ أحسنُ الأسماءِ؛ لأنّها تدلُّ علىٰ مَعانٍ حَسَنةٍ من تمجيدٍ وتقديسٍ وغيرِ ذلك، ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾: فسَمُّوهُ بتلك الأسماءِ، ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ ....

هاهُنا بإعادة اسم مَن استؤنفَ عنه الحديث، كأنه تعالىٰ لـمّا أقسمَ بقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾، قيل: فما يكون لهم حينئذ؟ فقيل: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾، وكَيْت وكيت.

وأمّا فائدة القَسَمية: فللتنبيه علىٰ قَلْعِ شُبْهة مَن عَسىٰ أن يتصدّىٰ لتأويل الآية، ويُحرِّفُ النصَّ القاطع، ويقول: «ومعنىٰ ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾: وجَعَلَهم لإغراقِهم في الكفر، وشدّة شكائمِهم، وأنه لا يتأتّىٰ منهم إلّا أفعالُ أهلِ النار، مخلوقين للنّار».

ومما يؤاخيه ما رَوَىٰ المصنّف: «أنّ أعرابياً، لـمّا سمع قولَه تعالىٰ: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات: ٢٢-٢٣]، قال: مَنِ الذي أغْضَبَ الجليلَ، حتى حلَفَ؟ كأنّهم لم يصدّقوه بقولِه حتى ألجؤوه إلىٰ اليمين».

قال الإمام: «هذه الآيةُ حُجّةٌ لصحّة مذهبنا في مسألة خلْقِ الأعمال(١)، وبإرادة

---

(١) في «مفاتيح الغيب»: الأفعال.

واتركوا تَسْميةَ الذين يَميلونَ عن الحقِّ والصوابِ فيها فيُسمُّونَه بغيرِ الأسماءِ الحُسنىٰ، وذلك أنْ يُسَمُّوهُ بما لا يجوزُ عليه، كما سَمِعْنا البَدْوَ يقولون بجَهلِهم: يا أبا المكارِم، يا أبيضَ الوَجْه، **يا نَخِيُّ!** أو أنْ يأبَوْا تسميتَه ببعضِ أسمائِه الحسنىٰ، نَحْوَ أنْ يقولوا: يا الله، ولا يقولوا: يا رحمن، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]. **ويجوزُ أنْ يُراد: ولله الأوصافُ الحُسنىٰ**، وهي الوَصْفُ بالعَدْلِ والخيرِ والإحسانِ وانتِفاءِ شَبَهِ الخَلْق، فصِفُوهُ بها، وذَروا الذين يُلْحِدونَ في أوصافِه، فيَصِفونَه بمَشيئةِ القَبائحِ وخَلْقِ الفَحْشاءِ والمُنكَر، وبما يَدْخُلُ في التشبيه، كالرؤية ونَحْوِها، وقيل: إلحادُهم في أسمائِه: تسميتُهم الأصنامَ آلهةً، واشتِقاقُهم «اللاتَ» مِن «الله»، و«العُزّىٰ» مِن «العزيز».

[﴿وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ ١٨١]

الكائنات، لأنه تعالىٰ صرّح بأنه خلَقَ كثيراً من الجِنّ والإنسِ لجهنم، ولا مزيدَ علىٰ بيان الله عزّ وجلّ»[١].

قولُه: (**يا نَخِيُّ!**) بالنون والخاء المعجمة، أي: يا متكبّر. **الأساس**: «وقد يُنْخَىٰ فُلان، وهو مَنْخُوّ مَزْهُوّ. وانْتَخَىٰ مِن كذا: استنكف منه، والعرب تنتخي من الدنايا، ورجُل ذو نَخْوة».

قولُه: (**ويجوزُ أنْ يُراد: ولله الأوصافُ الحُسنىٰ**)، معطوف علىٰ قولِه: «التي هي أحسن الأسماء» لأنها تدل علىٰ معانٍ حسنة. ويتغيرُ بحسب التفسيرَين معنىٰ قولُه تعالىٰ: ﴿يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦ﴾: فعلىٰ الأول: الإلحاد في التسمية أن يقال: أبو المكارم ونحوه، أو أن يُخَصّ بالله دون الرحمن. وعلىٰ الثاني: الإلحاد في الوصف، وهو ما ذكره من المعاني التي دلّت علىٰ مذهبِه تحكّماً.

---

(١) «مفاتيح الغيب» (١٥: ٥٢).

....

وهو أيضاً مَيْل[١]، لأن المرادَ بأسمائه الحسنىٰ ما ورد عن الشارع، وأُذِن فيه في الكتابِ والسنّة.

أمّا الكتاب فإنّ التعريفَ في «الأسماء»[٢] للعهد، ولا بد من المعهود، ولأنه أَمَر بالدعاءِ بها بقوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ فلا بدّ من وجود المأمورِ به، ونَهىٰ عن الدعاءِ بغيرها في قولِه: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾، وأَوْعَدَ علىٰ الإلحادِ فيها بقولِه: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، وأكّده بالسين.

وأمّا الحديث فما رويناه عن البخاري، ومسلم، والترمذي، عن أبي هريرةَ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ لله تسعَةً وتسعينَ اسماً، مَن حَفِظَها دَخَلَ الجَنّةَ»[٣]، وفي رواية: «أحْصَاهَا»، وفي أخرى: «إنّ لله تسعَةً وتسعينَ اسماً، مئةً إلّا واحداً».

قولُه: «مِئةً إلّا وَاحِداً» تأكيدٌ وفذْلَكة، لئلا يُزادَ علىٰ ما ورد، كقوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة ١٩٦][٤].

قال محيي السنّة: «الإلحاد في أسمائه: تسميتُه بما لم ينطقْ به كتابٌ ولا سنّة. وجملته أن أسماءَ الله علىٰ التوقيف»[٥].

---

(١) لعلّه يريد أن الإلحاد ـ بالإضافة إلى ما مضىٰ من تفسير ـ ميل، أي: أنه ميل عن الصواب. والمقصود أن الزمخشري بتفسيره هذه الآية يميل عن الصواب.

(٢) أي: في قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٣٦) ومسلم (٢٦٧٧) والترمذي (٣٥٠٦).

(٤) المذكور تأكيد وفذلكة لقوله تعالىٰ قبل ذلك: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦].

(٥) «معالم التنزيل» (٣: ٣٠٧) بتصرُّفٍ يَسير.

....

وقال الشيخ أبو القاسمِ القُشَيْرِيّ[(١)] في كتاب «مفاتيح الحجج ومصابيح النهج»: «أسماءُ الله تعالىٰ تُؤْخَذ توقيفاً، ويراعىٰ فيه الكتابُ والسنّة والإجماع. فكلّ اسمٍ ورد به في هذه الأصول وجب إطلاقُه في وصفِه تعالىٰ، وما لم يَرِد فيها لا يجوزُ إطلاقه في وصفِه تعالىٰ وإنْ صحّ معناه».

وقال الزجّاج: «لا ينبغي لأحدٍ أن يدعوَه بما لم يصف به نفْسَه، فيقول: يا الله، يا رحمَنْ، يا جواد، ولا يقول: يا سخِيّ[(٢)]، لأنه لم يصِفْ به نفْسَه، ويقول: يا رحيم، لا: يا رفيق، ويقول: يا قوي، لا: يا جَلْد»[(٣)].

وقال الإمام: «قال أصحابُنا: ليس كلُّ ما صحّ معناه جاز إطلاقُه عليه سبحانه وتعالىٰ، فإنه الخالقُ للأشياء كلِّها، ولا يجوز أن يقال: يا خالقَ الذئب والقِرَدة. وورد: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١]، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]، ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، ولا يجوز: يا معلّم، ولا يجوز عندي: يا مُحِبّ، وقد ورد: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]». تمّ كلامه[(٤)].

وأمّا الصفاتُ فكذلك، فكلُّ ما ثبت بالكتاب والسنّة من الصفاتِ والأفعال، كجواز الرؤية، وخلْقِ أفعال العباد[(٥)]، دون ما تشتهيه النفس، ويميلُ إليه الوهم، هو الذي يجبُ أن يُتّبع.

---

(١) سبقت ترجمته.

هذا، ولم أقف على كتابه المذكور «مفاتيح الحجج» لا مخطوطاً ولا مطبوعاً مع بحثي عنه.

(٢) في «معاني القرآن» للزجاج: «ولا ينبغي أن يقول: «يا سبحان»؛ لأنه لم يصف نفسه بهذه العبارة».

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٢: ٤٣٣) بتصرّف يسير.

(٤) «مفاتيح الغيب» (١٥: ٥٩).

(٥) قوله: «كجواز الرؤية، وخلْق أفعال العباد» سقط من (أ).

....

قال الإمام: «ومن الإلحادِ قولُ المعتزلة: لو فَعل كذا لكان سفيهاً، مستحقاً للذمّ»[1].

والمقامُ لا يقتضي إلا ذلك، لِما تقرّر أن الآيةَ تذييل لقصةِ اليهود، وأنهم كانوا يغيّرون أوضاعَ التوراة، ويحرّفون الكَلِم عن مواضعِه، يعني: تمسّكْ بما جاءك، في أسماءِ الله وصفاته وأفعالِه، من الله، وذَرِ الذين يغيّرون ما جاءهم من الله تعالىٰ. فإذاً لا مدخلَ للقياس والوهمِ فيه.

تنبيه: ذكر الفاضل برهانُ الدين النسفيُّ[2] في «شرح أسماء الله الحسنىٰ»: «أن مذهبَ الأشْعَريّ[3] ومَنْ تابعه: أنّ أسماءَ الله تعالىٰ توقيفية. والمعتزلةُ والكَرّامِيّةُ[4]: أنها قياسية، لأنه إذا تقرّر في العقلِ أن معنىٰ اللفظِ ثابت في حقه تعالىٰ فقد صحّ الإطلاق. واختيارُ الغزّاليِّ وبعضِ الأصحاب: أن الأسماءَ موقوفةٌ علىٰ الإجازة، وأمّا الصفات فلا.

واعلم أنّ الألفاظَ الدالّة علىٰ الصفاتِ ثلاثةُ أقسام:

الأول: ما يدلُّ علىٰ صفات واجبة، منها ما يصحّ إطلاقُه مفرداً لا مضافاً، نحو: الموجود، والأزليّ، والقديم، ونحوها. ومنها ما يصحُّ إطلاقُه مفرداً ومضافاً، نحو: الملِك، والمولىٰ، والرَّبِّ، والخالق، يجوز: يا خالقَ السموات. دون: يا خالق القِرَدة والخَنازير. ومنها ما يصحُّ مضافاً غير مفرد، نحو: يا منشئَ الرُّفات، ويا مُقيلَ العثَرات.

---

(١) «مفاتيح الغيب» (١٥: ٥٩).

(٢) هو: أبو الفضل محمد بن محمد، برهان الدين النسفي، عالم بالتفسير والأصول والكلام، مات ببغداد سنة ٦٨٧هـ. انظر: «مرآة الجنان» (٤: ٢٠٠)، و«الفوائد البهية» (١٩٤)، و«الأعلام» (٧: ٣١).

(٣) هو أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، وإليه تُنسب الأشعرية. من كتبه: «مقالات الإسلاميين». مات سنة ٣٢٤هـ. انظر: «الملل والنِّحل» (١: ٩٤)، و«البداية والنهاية» (١١: ١٨٧)، و«دائرة المعارف الإسلامية» (٣: ٤٣١).

(٤) الكرّامية ـ بتشديد الراء: هم أصحاب محمد بن كَرّام، وهم طوائف، يثبتون الصفات لله إلا أنهم يقولون بالتجسيم والتشبيه. انظر: «الملل والنحل» (١: ١٠٨).

والثاني: ما يدلّ علىٰ صفاتٍ ممتنعة، نحو: الوجه، واليد، والنزول، والمجيء، ولا يصحُّ إطلاقُه البتّة، وإن ورد به السّمعُ كان التأويلُ من اللوازم.

والثالث: ما لا يدلّ علىٰ صفاتٍ واجبةٍ ولا ممتنعة، بل يدلّ علىٰ معانٍ ثابتة، نحو: المكْرِ والخداعِ وأمثالهما. فلا يصحّ إطلاقُه، إلّا إذا ورد التوقيف. ولا يقال: يا مكّار، يا خدّاع، البتّة، وإن كان مذكوراً، كقوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤][١].

فإن قلت: أليس أن العجمَ يسمّون الله باسمٍ غيرِ وارد، والأمّة قد اتّفقوا علىٰ صحّته؟

فنقول: الأصلُ فيه ألا يصحّ، وأمّا اتّفاقُهم علىٰ الصحّة، فإنه يدلّ علىٰ كونه وارداً، وأمّا الوصفُ فإنه لا يتوقّف علىٰ التوقيف، فإنّ مدلولَ اللفظ لـمّا كان ثابتاً في حقِّ الله تعالىٰ كان وصفُه به حقّاً، فوجب أن يصحّ، غير أنه إذا كان موهِماً لما لا يليقُ بحضرتِه، فاللازم هو الاحترازُ عنه».

وقال أيضاً: «المتكلّمون قالوا: اللفظُ إما أن يدلّ علىٰ نفسِ الحقيقة من حيثُ هي هي، كالأرض، والسماء، والحجَر، والمدَر[٢]، فهو الاسم، أو يدلّ علىٰ أنها موصوفةٌ بصفةٍ معينة، نحو: العالِمِ والقادِرِ والخالِقِ والرازِق، وهو الصفة».

وقلت: هذه القسمةُ التي ذكرها، والفرْقُ الذي نقله، كله علىٰ خلافِ رأيِ الأصحاب[٣].

والحق أن الاعتمادَ في كل ذلك علىٰ التوقيف، فكلُّ ما أَذِن به الشارعُ أن يُدْعَىٰ به الله عزّ اسمه ـ سواءٌ كان مشتقّاً أو غيرَ مشتقّ ـ فهو اسم، وكل ما نُسِب إليه تعالىٰ من غيرِ ذلك الوجه ـ سواء كان مُؤَوّلاً أو غير مؤَوّل ـ فهو وصْف، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ

(١) وانظر هذه الأقسام ملخصة في: «مفاتيح الغيب» للرازي (١٥: ٦٧).

(٢) المدر ـ بفتح الميم والدال ـ الطين.

(٣) هذا ردّ من الطيبي على النسفي.

لـمّا قال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا﴾ [الأعراف: ١٧٩]، فأخبرَ أنّ كثيرًا من الثَّقَلَيْنِ عامِلونَ بأعمالِ أهلِ النار، أتبعَه قولَه: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾.

فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾. وقوله ﷺ: «إنَّ لله تسعةً وتسعينَ اسماً، مئةً إلّا وَاحِداً». وقول الأئمة: يقال: يا رحيم، لا: يا رفيق، ويقال: يا قويّ، لا: يا جليد. ولا يقال: يا معلّم، يا محب.

مثالُه حديثُ سلمان رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ: «اللهُ حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يستَحيي إذا رَفَعَ إليه العبدُ يدَهُ أنْ يَرُدَّهُ صِفراً، حتَّىٰ يَضَعَ فيهما خَيراً»(١)، أخرجه أبو داود والترمذي.

فالاسمُ كريم، والوصف حَيِيّ، فيقال: يا كريم، لا: يا حَيِيّ.

وقوله: «يردّه» و«يضع» مما نُسبَ إليه، فيجوز اعتبارُ لفظِهما فحسب، فلا يقال: يا رادّ، يا واضع(٢)، فقِسْ علىٰ ذلك، لا علىٰ العقل. وقل: «لا أُحصِي ثَناءً عليك، أنت كما أثنيتَ علىٰ نَفسِك»(٣).

قولُه: (لـمّا قال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا﴾... أتبعَه قولَه: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾): ولخّص القاضي هاهُنا كلامَ الإمام، حيثُ قال: «ذكرَ الله تعالىٰ ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ﴾، بعد ما بيّن أنه خلَق للنارِ طائفةً ضالّين ملْحدين عن الحق، للدلالةِ علىٰ أنه خلَق أيضاً للجنّة هادِين بالحق، عادلين في الأمر. واستدلّ به علىٰ صحّةِ الإجماع، لأن المرادَ منه أن

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٩٠) والترمذي (٣٥٥٦) وابن ماجه (٣٨٦٥) وغيرهم، وصحّحه ابن حبّان (٨٧٦) وفيه تمامُ تخريجه.

والحديث أورده الطيبي للتطبيق علىٰ ما يصحّ تسمية الله به أو وصفه.

(٢) قوله: «فلا يقال: يا رادّ، يا واضع» أثبته من (ط).

(٣) هذا جزء من حديث أخرجه مسلم في كتاب الصلاة حديث رقم (٢٢٢).

....

في كل قرنٍ طائفةً بهذه الصفة، إذ لو اختصّ بعهدِ الرسول ﷺ أو غيره، لم يكن لذِكره فائدة. فإنه معلوم»[١].

وقلت: قد ظهر من كلامِ المصنِّف والإمامَيْن[٢]، أن قولَه تعالىٰ: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ ﴾ عطفٌ علىٰ جملةِ قولِه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. وقولهُ: ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾، إذا أُخذَ بجملته وزبدتِه، كان كالمقابلِ لقوله: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ إلىٰ قولِه: ﴿هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩][٣]، وكلتا[٤] الآيتَين كالنشرِ لقوله: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ وهو[٥] كالتذييلِ لحديث بلعام، الذي أوتي آياتِ الله، والأسماءَ العِظام، فانسلخ منها، ومال إلى الأرض.

ولـمّا كانت الآياتُ تابعةً لتلك المعاني صحّ أنْ يكون: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الأعراف: ١٨٠] اعتراضاً. وأمّا تعلّقُه بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩] فإنه كالتنبيهِ على أن الموجِبَ لدخولِ جهنمَ هو الغفلة عن ذكر الله، وعن أسمائِه الحسنىٰ.

وأربابُ الذوق والمشاهدةِ يجدون ذلك من أرواحهم، لأن القلب، إذا غفلَ عن ذكْر الله، وأقبل على الدنيا وشهواتِها، وقع في نارِ الحرص، ولا يزال يترقّىٰ من ظلمةٍ إلى ظلمة، حتىٰ ينتهيَ إلى درَكات الحرْمان. وبخلافِه إذا انفتح على القلب بابُ ذكرِ الله تعالىٰ.

---

(١) «أنوار التنزيل» (٣: ٧٨) والنص تلخيص لِما جاء في تفسير الرازي. انظر: «مفاتيح الغيب» (١٥: ٧٢-٧٣).

(٢) يعني الرازي والبيضاوي.

(٣) وإنّما جعل الطيبي ما بين الآيتين كالتقابل لا مقابلة كاملة لعدم توافر عناصر المقابلة بالكامل بين الآيتين. وإنّما هو تقابل بالنظر إلى زبدة الكلام وخلاصته كما قال.

(٤) والمقصود الآيتان (١٧٩ - ١٨٠) وهما كالنشر للآية (١٧٨).

(٥) لعلّ المقصود بقوله: «وهو»: الآية (١٧٨) من سورة الأعراف، حيث سبق بيان التذييل فيها لما قبلها.

وعن النبيِّ ﷺ: أنه كانَ يقولُ إذا قرأها: «هذِهِ لكُم، وقد أُعطِيَ القومُ بينَ أيديكم مثلَها: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٥٩]»، وعنه ﷺ: «إنّ مِن أمّتي قومًا علىٰ الحقِّ حتىٰ ينزلَ عيسىٰ عليه السّلام»، وعن الكَلْبي: هُم الذينَ آمنَوا من أهلِ الكتاب. وقيل: هُم العُلماءُ والدُّعاةُ إلى الدِّين.

[﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ * أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ ١٨٢ – ١٨٥]

الاستِدراج: استِفعالٌ من الدَّرَجة؛ بمعنىٰ: الاستصعاد أو الاستنزالِ درجةً بعدَ دَرَجة. قال الأعشىٰ:

قولُه: (هذِهِ لكُم، وقد أُعطِيَ القومُ بين أيديكم مثلَها) يعني: قولُه تعالىٰ: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ حاصلٌ لكم، ونازلٌ في شأنِكم، فهي مختصّةٌ بكم، وقد أُعْطِي القومُ الذين سبقكم، يعني: بني إسرائيل، مثلَ هذه الآية، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٩]، يريد: لا تحْمِلوا هذه الآيةَ علىٰ بني إسرائيل، فإنّ لهم آيةً أخرى، واردةً في شأنهم.

قولُه: (إنّ مِن أمّتي قومًا علىٰ الحقِّ) الحديثُ من رواية البخاريِّ ومسلم، عن معاويةَ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا يَزالُ مِن أُمّتي أمّةٌ قائِمَةٌ بأمرِ الله، لا يَضُرُّهُم مَن خَذَلَهم، حتّىٰ يَأتِي أمرُ الله وهم علىٰ ذٰلِك»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٤١)، ومسلم (١٠٣٧).

فلَوْ كُنْتَ في جُبٍّ ثَمانِينَ قَامةً ... وَرُقِّيتَ أسبابَ السَّماءِ بسُلَّمِ
لَيَسْتَدرِجَنْكَ القَوْلُ حَتَّى تَهُرَّهُ ... وتَعْلَمَ أني عنكُمُ غَيرُ مُفْحَمِ

ومنه: دَرَجَ الصبيُّ: إذا قاربَ بينَ خُطاه، وأدْرَجَ الكتابَ: طواهُ شيئًا بعدَ شيء، ودَرَجَ القومُ: إذا ماتَ بعضُهم في أثرِ بَعْض.

ومعنىٰ ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾: سنَسْتَدنيهم قليلًا قليلًا إلىٰ ما يُهْلِكُهم ويُضاعِفُ عقابَهم، ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما يُرادُ بهم، وذلك أن يُواتِرَ اللهُ نِعَمَه عليهم مَعَ انهماكِهم في الغَيّ، ....

قولُه: (فَلَوْ كُنْتَ في جُبٍّ) البيتين[1]، الجُبّ: البئر. وأسباب السماء: أبوابها. تَهُرُّه: تكرهه. أفحَمْتَ فلاناً: إذا لم يُطِق جوابك.

يقول: لو كنْتَ مثلاً تحت الأرض، أو صَعِدت في السماء، ما تخلّصْت منّي، ومن هجائي إيّاك، فإنّي أستصْعِدُك من تحت الأرض، وأستنْزِلك من السماء، بقولٍ تكرهه، لتعْلَم أنّي غير مُفْحَم من جوابك.

والواو في: «ورُقِّيت» بمعنى «أو»؛ لأنه علىٰ وزان قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ٣٥].

قولُه: (أنْ يُوَاتِرَ اللهُ نِعَمَه) أي: يتابع، من الوتيرة، وهي: الطريقة.

---

(١) البيتان من قصيدة طويلة قالها الأعشىٰ الكبير يهجو عمير بن عبدالله.
والقامة: مقدار طول الرجُل. رُقِّيت: أُصْعِدْت. واستدرجه: خدعه وأدناه. ومُلْجَم: عاجز عن الكلام.
انظر: «ديوان الأعشىٰ الكبير» ص١٥٩، و«كتاب سيبويه» (٢: ٢٨). و«شرح شواهد الكشاف» (ملحق بالكشاف ٤: ٥٢٤). والشاهد قوله: «ليستدرجنْك» بمعنىٰ: ليستنزلنك درجة بعد درجة.

فكلَّما جَدَّدَ عليهم نِعْمةً ازدادوا بَطَرًا وجَدَّدوا معصية، فيَتَدرَّجونَ في المعاصي بِسَبَبِ تَرادُفِ النِّعَم، ظانِّينَ أنَّ مُواتَرةَ النِّعَم أَثَـرةٌ منَ الله وتَقْريب، وإنَّما هي خِذْلانٌ منه وتَبْعيد، فهو استِدراجُ الله تعالىٰ، نعوذُ بالله منه.

﴿ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ ﴾ عَطْفٌ علىٰ ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم﴾، وهو داخلٌ في حُكْمِ السِّين، ﴿إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾ سمّاهُ «كَيْدًا» لأنه شَبيهٌ بالكَيد، من حيثُ إنَّه في الظاهرِ إحسان، وفي الحقيقةِ خِذْلان.

الجوهري: «المواترة: المتابعة[1]، ولا تكونُ المواترةُ بين الأشياءِ إلا إذا وقعت بينها فترة، وإلا فهي مداركة».

قولُه: (فيَتَدرَّجونَ في المعاصي بِسَبَبِ تَرادُفِ النِّعَم)، يمكن أن يُحْمَلَ علىٰ الاستصعاد، باعتبار نظرِهم وزعْمهم أن مواترةَ النِّعم أَثَـرَةٌ من الله، وهو الظاهر، وأن يُحمل علىٰ الاستنزال، باعتبار الحقيقة؛ فإنّ الجِبلّة[2] الإنسانيةَ في أصل الفطرةِ سليمة، متهيّئةٌ لقبول الحقّ، لقضية «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الْفِطْرَةِ»[3]، فهو في يفاعِ التمكّن علىٰ الهدَىٰ والدِّين، فإذا أخلد إلىٰ الأرض، واتّبعَ الشهوات، ارتكب المعاصي، فنـزل درجةً درجة، إلىٰ أن يصيرَ إلىٰ أسفلَ السافلين، ومنْزِلُ أولئك ﴿كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

وإليه يلمحُ قولُه تعالىٰ: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٤، ٥].

قولُه: (أَثَـرَةٌ مِنَ الله) من قولهم: استأثر فلان بالشيء: اخْتصّ به. والاسم: الأَثَـرَة، بالتحريك.

---

(١) في (ج): «المتواترة والمتابعة».

(٢) الجبلّة ـ بكسر الجيم والباء، وفتح اللام مخفّفة ومشدّدة ـ: الخِلْقة.

(٣) أخرجه البخاري (١٣٨٥) ومسلم (٢٦٥٨) وغيرهما.

﴿مَا بِصَاحِبِهِم﴾: بمُحمَّدٍ ﷺ، ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾: من جُنون، وكانوا يقولونَ: شاعرٌ مجنون. وعن قَتادة: أنّ النبيَّ ﷺ علا الصَّفا، فدَعاهُم فَخِذًا فَخِذًا، يُحذِّرُهم بأسَ الله، فقال قائلُهم: إنَّ صاحبَكم هذا لمجنون، باتَ يُهوِّتُ إلى الصَّباح.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا﴾ نَظَرَ استدلال، ﴿فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فيما تَدُلّانِ عليه من عِظَمِ المُلْك؟ والمَلَكوت: المُلْكُ العظيم. ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ وفيما خَلَقَ اللهُ مما يقعُ عليه اسمُ الشيءِ ومن أجناسٍ لا يَحصُرُها العَدَدُ ولا يُحيطُ بها الوَصْفُ؟

قولُه: (أن النبيَّ ﷺ علاَ الصَّفا) الحديثُ من رواية البخاريّ، ومسلم، وأحمدَ بن حنبل، والترمذيّ، عن ابنِ عباس: «لـمّا نَزَلَت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، صَعِدَ النبي ﷺ على الصَّفَا، فجعل ينادِي: "يا بَني فِهر، يا بَني عَدي"، لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجاء أبو لهب وقريش. فقال: "أرَأيتُكم لو أخبَرتُكم أنَّ خيلاً بالوادي، تُريدُ أن تُغيرَ عَلَيكم، أكُنتُم مُصَدِّقيَّ؟" قالوا: نعَم، ما جَرَّبنا عليك إلّا صِدقاً. قال: "فإنّي نَذيرٌ لَكُم بَينَ يَدي عَذَاب شَديد"، فقال أبو لهب: تبّاً لَكَ، ألهذا جَمعتَنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]»[١].

قولُه: (يُهَوِّتُ)، النهاية: «يُهوِّت، أي: ينادِي عشيرته، يقال: هوَّتَ بِهِم وهيَّتَ: إذا ناداهم، والأصلُ فيه حكايةُ الصوت. وقيل: هو أن يقول: ياه ياه. وهو نداء الراعي لصاحبِه مِن بُعْد».

قولُه: (مما يقع عليه اسم الشيء) يعني: قولُه تعالى: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ بيان «ما» في «ما خَلَقَ الله»، يعني: إنّ فيما خلق الله تعالى أشياءَ ما علّق عليها أسماءً ويقع عليها اسمُ الشيء.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٠) ومسلم (٢٠٩) والترمذي (٣٣٦٣) وانظر تمامَ تخريجه في «مسند الإمام أحمد» (٢٥٤٤).

﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ﴾ «أن» مُخَفَّفةٌ من الثقيلة، والأصل: أنه عسىٰ، علىٰ أنّ الضميرَ ضميرُ الشأن، والمعنىٰ: أو لم ينظروا في أنّ الشأنَ والحديثَ: عسىٰ ﴿أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ ولعلَّهم يموتونَ عمّا قريب، فيُسارِعوا إلىٰ النَّظرِ وطَلَبِ الحقِّ وما يُنجِّيهم، قبلَ مُغافَصةِ الأجلِ وحلولِ العقاب. ويجوزُ أن يُرادَ باقترابِ الأجل: اقترابُ الساعة، ويكونَ مِن «كان» التي فيها ضمير الشأن.

فإن قُلت: بمَ يَتَعلَّقُ قولُه: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾؟ قلتُ: بقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾، كأنه قيل: لعلَّ أجلَهم قد اقترَب، فما لهم لا يُبادِرونَ إلىٰ الإيمانِ بالقرآنِ قبلَ الفَوْتِ، ....

قولُه: (﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ﴾: «أنْ» مُخَفَّفةٌ من الثقيلة): قال أبو البقاء: «ويجوزُ أنْ تكونَ مصدرية. وعلى الوجهَين[1] هو عطفٌ علىٰ ﴿مَلَكُوتِ﴾، و﴿أَن يَكُونَ﴾: فاعل ﴿عَسَىٰٓ﴾، واسم ﴿يَكُونَ﴾ مُضْمَرٌ فيها، وهو ضميرُ الشأن، و﴿قَدِ ٱقْتَرَبَ﴾ خبر «كان»، والهاء في ﴿بَعْدَهُۥ﴾ ضميرُ القرآن»[2].

وقولُه: «ويكونَ مِن «كان» التي فيها ضميـر الشأن»: ابتـداءُ كلامٍ لا يختصُّ بقوله: «ويجوز أن يراد».

قولُه: (مُغافَصةِ الأجلِ)، الأساس: «غافَصَه الأمرُ: فاجأه علىٰ غِرَّةٍ منه. ووقاك الله غوافصَ الدهر، أي: حوادثه».

قولُه: (كأنه قيل: لعلَّ أجلَهم قد اقترَب، فما لهم لا يُبادِرونَ إلىٰ الإيمانِ بالقرآن)، يدلّ علىٰ أن قولَه تعالىٰ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ متّصلٌ بقولِه: ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ

---

(١) أي: سواء كانت مخففة من الثقيلة أم كانت مصدرية.

(٢) «التبيان في إعراب القرآن» (١: ٦٠٥).

....

هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾، وأنّ اتصال: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾ بقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾ اتصالُ المسبّب بالسبب[١]، لكن على تقديرِ معطوفات، فإنه قدّر للفاءِ مدخولاً آخر، وعطف ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾ بالواو عليه.

المعنىٰ: أَوَلَمْ يتفكّروا أن الشأنَ والحديثَ أن يكون قد اقترب أجلُهم، فيسارعوا إلىٰ التفكّرِ في القرآن، والإيمان به. وماذا ينتظرون بعد وضوحِ الحقّ؟ وبأيّ حديثٍ أحقَّ منه يريدون أن يؤمنوا.

والذي يدلّ علىٰ أن الكلامَ في القرآن، وأنه متعلّقٌ بالأول، الضميرُ في قوله تعالىٰ: ﴿بَعْدَهُۥ﴾، وأن أصل الكلامِ في الرسول ﷺ ونفْي الجنونِ عنه، بما يوردُه من الوحْي، لأن وِزانَ الآية وزانُ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾، إلىٰ قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٢-٢٧]، والآيات المشابهة لها.

وإنّما خلط المصنفُ الكلامَ بعضَه مع بعض، لأن قولَه تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ جاء مقرِّراً لقوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

المعنىٰ: أو لم يتجرّدوا للتفكّرِ في ملكوتِ السموات والأرض، وما خلق اللهُ من شيء، ليعلموا أنّ الله عزّ وجلّ لم يخلقْهم سُدىً، وإنّما خلقَهم ليعْبدوه، ولا يشركوا به شيئاً، وليحصّلوا ما به ينالون الزُّلْفَىٰ عند الله، ويتخلّصوا من عقابِ السّرْمد. ولا يستتبُّ ذلك إلا بإنزالِ كتاب، وإرسالِ رسول. فها هو قد أُنْزِل إليكم هذا الكلامُ المجيد، وأُرْسِل هذا الرسولُ الكريم، فليتفكّروا في أحوالِه، ليعلموا أنه ليس بمجْنون، ولينظروا في أحوالِ أنْفسِهم،

---

(١) أي: أن اقتراب الأجل يجب أن يكون سبباً في إيمانهم.

وماذا يَنتَظِرون بعدَ وضوحِ الحقّ؟ وبأيِّ حديثٍ أحقَّ منه يُريدونَ أن يُؤمنوا؟

[﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ ١٨٦]

ليتحققَ الأمر. فما هذا التَّواني والانتظار؟ فانتظروا الفرصة، إذ ليس بعد ذلك حديثٌ مثْله، فآمِنوا به قبل مغافصةِ الأجل، وحلولِ العقاب.

فلمّـا كان قولُه تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ تقريراً لقولِه: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ﴾ متّصلاً به، وكان حديثاً في شأن التنزيلِ والرسول، عطف قولَه: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ عليه[١].

روىٰ محيي السنّة عن قتادة: أن النبيَّ ﷺ قام علىٰ الصَّفا لَيْلاً، فجعل يدعو قريشاً فَخِذاً فَخِذاً: «يا بني فلان، يا بني فلان»، يحذّرُهم بأسَ الله ووقائعه. فقال قائلهم: إن صاحبَكم هذا لمجنون. فأنْزَل الله تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾، ثم حثّهم علىٰ النظرِ المؤدّي إلىٰ العلْم، فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ ليستـدلّوا به[٢] علىٰ وحدانيتِه، ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ فيؤْمنوا قبل أنْ يمُوتوا، ويصِيروا إلىٰ العذاب، ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي: بعد القرآن. أي: بأيِّ كتابٍ غير ما جاء به محمدٌ يُصدّقون، وليس بعده نبيٌّ ولا كتاب؟! ثم ذكَر علّة إعراضِهم عَن الإيمانِ فقال تعالى: ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦]»[٣].

قولُه: (وبأَيِّ حديثٍ أحـقَّ منه)، أحقّ منه: تأويل ﴿بَعْدَهُۥ﴾. المغرب: «قولُـه: وإنْ كان

---

(١) أي: على قوله تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، وهو بالتـالي معطوف على قوله سبحانه: ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ﴾ كما سبق تقريره.

(٢) في «معالم التنزيل»: «بها»: أي: بالآية. و«به» أي: بقوله.

(٣) المصدر السابق (٣: ٣٠٩).

قُرِئ: ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ بالياءِ والنون، والرفعُ علىٰ الاستئناف، و«يَذَرْهُم» بالياءِ والجزم؛ عَطفًا علىٰ محلِّ ﴿فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾، كأنه قيل: مَن يُضْلِلِ اللهُ لا يَهْدِه أحدٌ ويَذَرْهُم.

[﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ١٨٧]

﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ قيل: إن قومًا من اليهودِ قالوا: يا مُحمَّدُ، أخبِرْنا متىٰ الساعةُ إن كُنتَ نبيًّا، فإنا نَعلَمُ متىٰ هي! وكان ذلك امتحانًا منهم، مَعَ عِلمِهم أنَّ اللهَ تعالىٰ قد استأثَرَ بعِلمِها. وقيل: السائلونَ قُرَيش. و﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ من الأسماءِ الغالبة، كالنَّجْمِ للثُّريا، وسُمِّيَتِ القيامةُ بالساعة، لوقوعِها بَغْتةً أو لسُرْعةِ حِسابِها، **أو علىٰ العكسِ** لِطولِها،.....

ليس بالذي «لا بُعْدَ لَه»، يعني: ليس بنهايةٍ في الجودةِ والرداءة، فكأن محمداً ـ رحمة الله عليه ـ أخذ من قولِهم: هذا مما ليس بعده غايةٌ في الجودةِ والرداءة»[(١)].

قولُه: (وقرئ: ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ بالياءِ والنون): بالياء: أبو عمرٍو وعاصم. وبالنون: نافعٌ وابنُ كثيرٍ وابنُ عامر، وحمزة والكسائي: بالياء وجزم الراء[(٢)].

قولُه: (**أو علىٰ العكس**): أي: سُمِّيت القيامةُ بالساعة، بناءً علىٰ عكْسِ ما هي عليه من الطول، تمليحاً، كما سمّيت المَهْمَهُ[(٣)] مفازةً، والأسْوَدُ كافُوراً.

---

(١) كتاب «المغرب في ترتيب المعرب» للمطرزي (١: ٨٠)، وفي عبارته غموض، إلا أن المقصود بيان معنىٰ ﴿بَعْدَهُۥ﴾.

(٢) قوله: «وحمزة والكسائي بالياء، وجَزْمِ الراء» أثبته من (ط).

والقراءة بالياء محمولة على لفظ الغيبة في ﴿مَن يُضْلِلِ﴾، وبالنون على الإخبار من الله عزّ وجلّ عن ذكْر نفسه. انظر: «الكشف عن وجوه القراءات» (١: ٤٨٥)، و«حجة القراءات» ص٣٠٣.

(٣) المهمه: الصحراء البعيدة الأطراف. والكافور: نوع من الطِّيب.

أو لأنها عندَ الله علىٰ طولِها كساعةٍ من الساعاتِ عند الخلق.

﴿أَيَّانَ﴾ بمعنىٰ: متىٰ. وقيل: اشتقاقهُ منْ «أيٍّ»؛ فَعْلانُ منه، لأنَّ معناهُ: أيُّ وَقْتٍ وأيُّ فِعْل، من: أَوَيْتُ إليه، لأنّ البعضَ آوٍ إلىٰ الكلِّ مُتسانِدٌ إليه، قاله ابنُ جنِّي، وأبىٰ أن يكونَ من «أيان»؛ لأنهُ زمان، «وأينَ» مكان. وقرأ السُّلَميُّ: «إِيّانَ» بكَسْرِ الهمزة، ......

قولُه: (أوْ لأنّها عندَ الله) عطفٌ علىٰ قولِه: «الوقوعِها بَغْتة»، يعني: سُمّيت القيامةُ عُرْفاً بكذا، وعند الله بكذا.

والساعة عُرْفاً: عبارةٌ عن أدنىٰ الزمان. قال في قولِه تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم: ٥٥]: «الساعة: القيامة، سمّيت بذلك لأنها تقعُ بغْتة، كما تقول: «في ساعة»، لمن تستعْجِلُه، وجرَت علَماً لها، كالنجم للثريّا».

قولُه: (قاله ابنُ جِنّي): ذكر ابنُ جِنّي في «المحتسب»: «أمّا «أيّان» بفتحِ الهمزة: فَفَعْلان، وبكسرِها: فِعلان، والنون فيهما زائدة، حملاً علىٰ الأكثر في زيادةِ النون، في نحو ذلك. ولم تُجعَل «فِعّالاً» من لفظ «أينَ»، لِما يمنعُ منه كونِ «أيّانَ»: ظرف زمان، و«أينَ»: ظرفُ مكان. و«أيّ» هذه من لفظ «أوَيْتُ» ومعناه: أمّا اللفظُ فإن بابَ «طَوَيْتُ» و«شَوَيْتُ» أضعاف باب «حَيِيتُ» و«عَيِيتُ»، وأمّا المعنىٰ فإن البعضَ آوٍ إلىٰ الكل، ومتساندٌ إليه، فأصلها علىٰ هذا: «أَوْيٌ»، ثم قُلِبت الواو ياء، وأُدْغِمت في الياء، فصارت «أيّ»، كقولك: طَوَيْتُ الكتاب طَيّاً، وشَوَيْتُ اللحْم شَيّاً»(١).

قال أبو البقاء: «﴿أَيَّانَ﴾: اسمٌ مبنيّ، لتضمّنه معنىٰ حرفِ الاستفهام، بمعنى «متىٰ»، وهو خبرٌ لـ ﴿مُرْسَىٰهَا﴾، والجملة في موضع جرٍّ بدلاً من الساعة، أي: يسألونك عن زمانِ حلولِ الساعة»(٢).

---

(١) «المحتسب» لابن جني (١: ٢٦٨).

(٢) «التبيان في إعراب القرآن» (١: ٦٠٦).

﴿مُرْسَىٰهَا﴾: إرساؤُها، أو وَقْتُ إرسائِها؛ أي: إثباتِها وإقرارِها، وكلُّ شيءٍ ثقيلٍ رُسُوُّهُ ثباتُه واستِقرارُه. ومنه: رَسا الجبلُ وأرسىٰ السفينةَ. والمرسىٰ: الأَنجَرُ الذي تُرْسىٰ به، **ولا أثقَلَ من الساعة**، بدليلِ قولِه: ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، والمعنىٰ: مَتىٰ يُرْسِيها الله، ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا﴾ أي: عِلْمُ وقتِ إرسائِها عندَه قد استأثرَ به، ولم يُخبِرْ به أحدًا من مَلَكٍ مُقرَّبٍ ولا نبيٍّ مُرْسَلٍ، يكادُ يُخفيها من نفسِه، ليكونَ ذلك أدعىٰ إلىٰ الطاعة، وأزجَرَ عن المعصية، كما أخفىٰ الأجلَ الخاصَّ، وهو وقتُ الموت، لذلك ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا تزالُ خَفِيَّة، لا يُظهِرُ أمرَها ولا يَكشِفُ خَفاءَ عِلمِها إلّا هو وَحْدَه إذا جاء بها في وقتِها بَغْتة، لا يُجلِّيها بالخبرِ عنها قبلَ مجيئِها أحدٌ من خلقه، ....

قولُه: (ولا أثقَلَ من الساعة): يعني: إنّما استعير ﴿مُرْسَىٰهَا﴾ لإثبات ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ وإقرارِها[1]، والرُّسُوُّ إنّما يستعملُ في الأجسام الثقيلة: كالجبل، وأنْجر[2] السفينة، لأنّ «الساعة» أيضاً ثقيلة في المعنىٰ، ولا أثقل منها. قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧]. ولهذا قال بعدها: ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فجعل السمواتِ والأرضَ ظرْفاً لها، تشبيهاً للمعاني بالأجسام. ووجهُ التشبيه: أن كلَّ شيءٍ لا يطاق ولا يقام له فهو ثقيل، كما صرح به.

قولُه: (﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾)، «اعلَمْ أن قولَه: ﴿لِوَقْتِهَآ﴾ حالٌ من فاعل ﴿يُجَلِّيهَا﴾[3]، واللامُ فيه ـ أي: في ﴿لِوَقْتِهَآ﴾ ـ مثلُها في قولِه تعالىٰ: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ وهي للتأقيت. قاله القاضي[4].

---

(١) أي في كلمة ﴿مُرْسَىٰهَا﴾ في الآية استعارة تصريحية، حيث شبّه ثبات الساعة وإقرارها بالإرساء الذي يكون للأجسام الثقيلة.

(٢) الأنْجَر: مرساة السفينة ـ لسان العرب «نَجَر».

(٣) قوله: «علم أن قوله: ﴿لِوَقْتِهَآ﴾: حال من فاعل ﴿يُجَلِّيهَا﴾» سقط من (ط).

(٤) «أنوار التنزيل» (٣: ٨٠).

لاستمرارِ الخفاءِ بها علىٰ غيرِه إلىٰ وقتِ وقوعِها، ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: كلٌّ مِن أهلِها من الملائكةِ والثَّقَلَيْن أهَمَّه شأنُ الساعة، وبوُدِّهِ أن يَتجلّىٰ له عِلمُها، وشَقَّ عليه خَفاؤُها، وثَقُلَ عليه، أو ثَقُلَتْ فيها لأنَّ أهلَها يَتوقَّعونها ويخافونَ شدائدَها وأهوالَها، أو لأنَّ كلَّ شيءٍ لا يُطيقُها ولا يقومُ لها فهي ثقيلةٌ فيها، ﴿إِلَّا بَغْتَةً﴾: إلّا فَجْأةً علىٰ غَفْلةٍ منكم.

وعن النبي ﷺ: «إنَّ السَّاعةَ تَهيجُ بالنَّاس، والرجلُ يُصْلِحُ حَوْضَه، والرجلُ يَسْقي ماشيتَه، والرجلُ يُقوِّمُ سِلعتَه في سُوقه، والرجلُ يَخفِضُ ميزانَه ويَرفَعُه».

قولُه: (﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: كلٌّ مِن أهلِها): اعلمْ أن نسبةَ الثقلِ إلىٰ السماواتِ والأرض[١] ـ كما سبق ـ معنويّ، فإمّا أن يقدّرَ الأهل أوْ لا، والأول: الثقل: إما بحسَبِ الاهتمامِ بشأن معرفتها، وأنها خفيّةٌ لا تُعْلَم، فيشقُّ عليهم، أو بحسَبِ الخوفِ من شدائِدها، والتقدير: ثَـقُل هَمُّ معْرفتها، أو خوف إرسائها علىٰ أهل السماوات والأرض. و﴿فِى﴾ هاهُنا[٢] كما هي في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، ولذلك قال: «شَقَّ عليه».

والثاني: معنىٰ الثقل: هو أن نفسَ السماوات والأرض لا تطيقُها، فإن السماواتِ تنْشقّ عند نزولِها، والأرضَ ترْجف، والجبالَ تنْهدّ.

قولُه: (وبوُدِّهِ أن يَتجلّىٰ له): يقال: بِوُدِّي أن أفعل كذا، أي: أتمنّىٰ، والباء زائدة، مثْلها في: «بحَسْبِك أن تفعل كذا»، وهو مبتدأ وخبر. والجملةُ معطوفةٌ علىٰ خبر «كلّ» وهو «أهمّه».

قولُه: (إنَّ السَّاعةَ تَـهيجُ بِالنَّاسِ): روينا عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لَـتَقومَنَّ السَّاعـةُ وقَد نَشَـرَ الرَّجُلانِ ثَوبَهُما، فلا يَتبايَعانِه ولا يَطويانِه، ولتَقومَنَّ السَّاعةُ وقَد

---

(١) قوله: «اعلم أن نسبة الثقل إلىٰ السماوات والأرض» سقط من (أ).

(٢) يعني في قوله: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَا﴾: كأنك عالمٌ بها، وحقيقتُه: كأنك بليغٌ في السُّؤالِ عنها، لأنَّ مَنْ بالغَ في المسألةِ عن الشيء والتنقيرِ عنه، استحكَمَ عِلمُه فيه ورَصُنَ، وهذا التركيبُ معناه المُبالغة، ومنه إحفاءُ الشارب، واحتفاءُ البَقْل: استئِصالُه، وأحفىٰ في المسألة: إذا أَلْحَفَ، وحَفِيَ بفُلانٍ وتحفّىٰ به: بالغَ في البِرِّ به. وعن مُجاهد: استَحفَيْتَ عنها السُّؤالَ حتّىٰ عَلِمْتَ. وقرأ ابنُ مسعودٍ: «كأنك حَفِيٌّ بها»، أي: عالمٌ بها بَليغٌ في العِلمِ بها. وقيل: ﴿عَنۡهَا﴾ متعلِّقٌ بـ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾، أي: يسألونك عنها كأنك حَفِيٌّ ـ أي: عالم ـ بها.

انصَرَفَ الرَّجُلُ بلَبَنِ لَقحَتِه فلا يَطعَمُه، ولَتَقومَنَّ السَّاعةُ وهو يَليطُ حَوضَهُ فلا يَسقي منه، ولَتقومَنَّ السَّاعَةُ وقد رَفَع أُكلتَه إلىٰ فيه، فَلا يَطعَمُها»[1] أخرجه البخاري ومسلم.

قولُه: (﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَا﴾: كأنك عالمٌ بها): اعلمْ أن ﴿عَنۡهَا﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَا﴾ إما أن يتعلَّقَ بقوله: ﴿حَفِيٌّ﴾ أو ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾. فإذا عُلّق بـ﴿حَفِيٌّ﴾ يكون كنايةً عن علْمٍ رصين، لأن معنىٰ ﴿حَفِيٌّ عَنۡهَا﴾: بليغٌ في السؤال عن الساعة. وفيه تضمينُ معنىٰ السؤال، ودلّت المبالغةُ في المسألة عن الشيء علىٰ حصولِ ذلك الشيء علىٰ سبيلِ الاستحكام[2].

قال الزجّاج: «كأنّك أكثَرتَ المسألة عنها»[3].

المعنىٰ: يظنّ اليهودُ أنك مبالغٌ في السؤال عن الساعة، حتى منحك الله علْمَها، فيسألون: أيّان ذلك؟

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٦) ومسلم (١٥٧).

قوله: «يليط» يعني يُصْلِحُ. والأُكْلَةُ بضم الهمزة: لُقمةُ الطعام.

(٢) خلاصة الكلام أن في قوله: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَا﴾ كناية، إذ أطلق هذا اللفظ وأراد لازم معناه، وهو التمكّن في العلْم، والكناية عن صفة.

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٢: ٤٣٥).

وقيل: إنَّ قريشًا قالوا له: إن بينَنا وبينَكَ قرابة، فقُلْ لنا متىٰ الساعة؟ فقيل: يسألونك عنها كأنك حَفِيٌّ تَتَحفّىٰ بهم، فتَخْتَصُّهم بتعليم وَقْتِها لأجلِ القَرابة، وتَزْوي عِلْمَها عن غيرِهم، ولو أُخْبِرْتَ بوَقْتِها لمصلحةٍ عرَفَها اللهُ في إخبارِك به، لكنتَ مُبلِّغَه القريبَ والبعيدَ من غيرِ تخصيص، كسائرِ ما أُوحي إليك.

وقيل: كأنك حَفِيٌّ بالسُّؤالِ عنها تُحبُّه وتُؤثِرُه، بمعنىٰ أنَّك تكرَهُ السُّؤالَ عنها، لأنَّها مِن عِلمِ الغيبِ الذي استأثَرَ اللهُ به، ولم يُؤتِهِ أحدًا من خَلقِه.

هذا معنىٰ قول مجاهد: «استحْفَيْتَ عنها السؤال، حتى علِمْتَ»، لأن «حتَّىٰ» للتدرج. وقراءةُ ابن مسعود[1]: «كأنَّكَ حَفِيٌّ بها» لأنه ضمّنه معنىٰ العلْمِ الذي هو بمعنىٰ الإحاطة، كقولِه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، وعدّاه بالباء.

وأمّا إذا عُلّقَ ﴿عَنْهَا﴾ بـ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾، فمتعلّـقُ ﴿حَفِيٌّ﴾ إذاً الباء المقدّرة.

ثم لا تخلو ﴿حَفِيٌّ﴾ إما أن تُضمَّن معنىٰ العلْمِ مع الباء المقدّرة، كقراءةِ ابن مسعود، وهو المرادُ بقوله: «﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾: أي عالمٌ بها»، وإما أن تُجعلَ من قولِهم: حَفِيَ بفلان، وتحفّى به: بالَغَ في البرّ به، ثم مدخول الباء إما ضميرُ السائل فهو المرادُ من قوله: «﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾: تَـتَحفّىٰ بهم، فتخْتَصّهم بتعليمِ وقْتها»، أو ضميرُ السؤال، وهو المرادُ من قوله: «كأنّك حفي بالسؤال عنها تحبُّه وتختاره».

قال الزجّاج: «كأنك فَرِحٌ بسؤالهم، يقال: تحفَّيْتُ بفلان في المسألة: إذا سألتَ سؤالاً أظهرتَ فيه المحبّةَ والبرّ به»[2].

قال أبو البقاء: «﴿حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ فيه وجهان: أحدُهما تقديرُه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾،

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (٥: ٢٣٩). وذكر في «المحتسب» (١: ٢٦٩) أنها قراءة ابن عباس.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٢: ٤٣٥).

فإن قلت: لـمَ كَرَّرَ ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ ﴾ و﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾؟ قلتُ: للتأكيد، ولِما جاءَ به من زيادةِ قوله: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾، وعلىٰ هذا تكريرُ العلماءِ الحذَّاقِ في كُتُبِهم، لا يُخلُونَ المُكـرَّرَ من فائدةٍ زائدة، منهم محمدُ بنُ الحسنِ صاحبُ أبي حنيفةَ رحمَهما الله، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أنه العالِمُ بها، وأنه المختصُّ بالعِلْمِ بها.

[﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ١٨٨]

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ﴾ هو إظهارٌ للعُبودية، والانتفاءِ عمـا يختصُّ بالرُّبوبيةِ من عِلمِ الغيب، أي: أنا عَبْدٌ ضعيفٌ لا أملِكُ لنـفْسيَ اجتِلابَ نَفْعٍ ولا دَفْعَ ضَررٍ كما المماليكُ والعَبيد، ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ربِّي ومالِكي من النفع لي والدَّفْعِ عني، ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ﴾ لكانت حالي علىٰ خِلافِ ما هي عليه، من استكثارِ الخير، واستِغزارِ المنافع،

أي: مَعْنِيٌّ بطلَبِها، فقدّمَ وأخّر. والثاني: أن «عن» بمعنى الباء، أي: حفيٌّ بها، و﴿كَأَنَّكَ ﴾ حالٌ من المفعول. ﴿حَفِيٌّ ﴾ بمعنى «محْـفُوٌّ»، و«فعيل» بمعنى: فاعل»(١).

قولُه: (لا يُخلُونَ الـمُكرَّرَ من فائدةٍ): قال في «الانتصاف»: «وفي التكريرِ نكتةٌ لا توجدُ إلا في القرآن، فإنه إذا بُني الكلامُ علىٰ مقْصِد، واعترَضَ في أثنائه عارض، وأريد الرجوعُ لتتمةِ المقْصد الأوّل، وقد بَعُد، طُـرِّيَ(٢) لتتصل النهايةُ بالبداية، فإنه تعالىٰ ابتدأ بقولِه: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ﴾، وطال الكلام، إلىٰ قوله: ﴿بَغْتَةً ﴾، وأراد إنكارَ سؤالِـهم بوجهٍ آخر، هو قولُه: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ ﴾ وتعلُّـقه قويٌّ بالسؤال، فطُـرِّيَ، وغالب التطريـةِ بإجمال، ولهذا قال: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ ﴾ ولم يذكر «الساعة»، اكتفاءً بما تقدَّم، وأعاد: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ مجملاً»(٣).

(١) «التبيان في إعراب القرآن» (١: ٦٠٦).

(٢) أي: ذكر.

(٣) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٢: ١٨٤).

واجتنابِ السُّوءِ والمَضارّ، حتّىٰ لا يَمَسَّني شيءٌ منها، **ولم أكُنْ غالبًا مرّةً ومَغلوبًا أُخرىٰ في الحروب**، ورابحًا وخاسِرًا في التجارات، ومُصيبًا ومخطئًا في التدابير، ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا﴾ عَبْدٌ أُرسِلتُ نذيرًا وبشيرًا، وما مِن شأني أنّي أعلمُ الغَيْب، ﴿لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ يجوزُ أن يَتَعلَّقَ بـ«النذيرِ» و«البشيرِ» جميعًا، لأن النِّذارةَ والبِشارةَ إنما تَنْفعان فيهم، أو يَتَعلَّقَ بـ«التبشيرِ» وحدَه، ويكونَ المُتعلِّقُ بـ«النذيرِ» محذوفًا، أي: إلّا نذيرٌ للكافرينَ وبَشيرٌ لقومٍ يُؤمنون.

[﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۞ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ ١٨٩ - ١٩٠]

﴿مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ وهي نَفسُ آدمَ عليه السلام، ﴿وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ وهي حوّاءُ، خَلَقَها من جَسَدِ آدمَ من ضِلَعٍ من أضلاعِه، أو من جِنسِها، كقوله: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ [النحل: ٧٢]، ﴿لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَا﴾: ليطمئنَّ إليها ويميلَ ولا يَنفِر؛ لأنَّ الجنسَ إلى الجنسِ أَميَلُ وبه آنَسُ، وإذا كانت بعضًا منه كان السكونُ والمَحبَّةُ أبلغ، .....

قولُه: (**ولم أكُنْ غالبًا مرّةً، ومَغلوبًا أُخرىٰ في الحروب**): قلت: ومِنْ ثَمّ سأل هرقلُ أبا سفيان، علىٰ ما روينا عن البخاريِّ ومسلم: هل قاتَلْتُموه؟ قال: قلت: نَعَم. قال: فكيف كان قتالُكم إيّاه؟ قال: قلْت: تكون الحرْب بيننا وبينه سِجالاً: يُصِيب منّا، ونُصِيب منه. قال: كذلك الرُّسُل، تُبْتَلىٰ، ثُمَّ تكونُ لها العاقِبةُ[١].

---

(١) هذا جزءٌ من حديثٍ طويلٍ أخرجه البخاري (٢٩٤١) ومسلم (١٧٧٣) من حديثِ ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

كما يَسكُنُ الإنسانُ إلىٰ وَلَدِه ويُحِبُّه محبَّةَ نفسِه لكَوْنِه بَضْعةً منه، وقال: ﴿لِيَسْكُنَ﴾ فذكَّرَ بعدما أنَّثَ في قوله: ﴿وَاحِدَةٍ﴾، ﴿مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، ذهابًا إلىٰ معنىٰ «النفس» ليُبيِّنَ أنَّ المُرادَ بها آدم، ولأنَّ الذَّكَرَ هو الذي يسكُنُ إلى الأُنثىٰ ويَتَغَشَّاها، **فكان التذكيرُ أحسَنَ طِباقًا للمعنىٰ.**

والتغشِّي: كنايةٌ عن الجِماع، وكذلك الغِشْيانُ والإتيان، ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ خَفَّ عليها، ولم تَلْقَ منه ما يلقىٰ بعضُ الحَبالىٰ مِن حَمْلِهنَّ من الكَرْبِ والأذىٰ، ولم تَستَثقِلْهُ كما يَسْتَثقِلْنَه، وقد تَسمَعُ بَعضَهُنَّ تقولُ في وَلَدِها: ما كان أخفَّه علىٰ كَبِدي حينَ حَمَلتُه!

قولُه: (بَضْعةٌ مِنه)، الجوهري: «البَضْعة: القطعةُ من اللحْم، هذه بالفتح، وأخواتها بالكسر، مثل: القِطْعة والفِلْذة».

قولُه: (فكان التذكيرُ أحسَنَ طِباقاً): قيل: لو أنَّثَ الضميرَ في ﴿لِيَسْكُنَ﴾ لتُوُهِّمَ أن فاعلَه ضميرُ الزوج، والضميرُ المجرور للنفس، وأدىٰ إلىٰ أن الأنثىٰ هي التي تسْكنُ إلىٰ الذكر، والشأنُ خلافُه، وقلت: وفيه نظر.

وإنّما عطف المصنف «ويَتَغَشَّاها» علىٰ «ويسكن» ليؤْذِنَ بالبيانِ والتفسيرِ. والسكون علىٰ هذا الوجهِ غيرُ السكون علىٰ الأول، لأنه كالمقدمةِ للجماع، وما به يتوصلُ الرجُل إلىٰ ما يريدُه من المرأة.

فالفاء في ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ للتعقيب، كقولِه تعالىٰ: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤][(١)]، فذكّر الضميرَ[(٢)] مراعاةً للفظِ والمعنىٰ.

---

(١) والشاهد قوله: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ﴾، إذ الفاء فيه للتعقيب.

(٢) أي: في قوله تعالىٰ: ﴿لِيَسْكُنَ﴾.

﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ فمَضَتْ به إلىٰ وقتِ ميلادِه من غيرِ إخداجٍ ولا إزلاق.

وقيل: ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ يعني: النُّطفة، ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾: فقامَت به وقعَدَت.

وقرأ ابنُ عباسٍ رضيَ الله عنه: «فاستَمَرَّتْ به»، ....

وفائدةُ هذا الوجه: بيانُ المقصود الأول من الازدواج للتوالدِ والتناسل، حيثُ أوقع الغِشيان ومقدّمته، أي: السكون، علّة للجعْل.

ومَنْ عنده أدنىٰ مُسْكةٍ يعْلم أن الجماعَ غير مطلوب بالذّات، وإنّما هو ذريعةٌ إلىٰ تكثير نوع الإنسان، فظهر من هذا أن عطفَ ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ علىٰ ﴿لِيَسْكُنَ﴾ مانعٌ عن أن يُحْمَلَ «السكون» علىٰ الأنثىٰ.

قولُه: (إلىٰ وقتِ ميلادِه)، وهو من إضافةِ العامِّ إلىٰ الخاص، نحو: كُلّ الدراهم، لأنّ الميلادَ هو «اسم الوقت الذي وُلِد فيه، والمولد: الموضع الذي ولدَ فيه». قالَه الجوهري.

وأمّا في «الأساس» فهما سِيّان، قال: «مولدُه وميلادُه: وقتُ كذا».

قولُه: (مِن غيرِ إخداجٍ)، الأساس: «ناقة خادِج: ألقت ولَدَها قبل الوقت، وإن تَمَّ خَلْقُه. ومُخْدِج: جاءت به ناقصَ الخلْق، وإنْ كان لوقْتِه».

قولُه: (ولا إزلاق)، الأساس: «ومن المجاز: أَزْلَقَت الرَّمَكَةُ: أسْقطَتْ، وهي مِزْلاق، وولدها زَلِيق».

قولُه: (﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾: فقامت به وقعَدَت): قال الزجاج: «﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾، معناه: استمرّت به، قعدت وقامت، فلم يُثْقِلْها»[1].

ومن ثَمَّ عَقَّبه الـمُصنِّفُ بقراءةِ ابن عباس: «واسْتَمَرَّت به»[2].

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٢: ٤٣٦).

(٢) انظر: «البحر المحيط» (٥: ٢٤٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (٣٣٨٧).

وقرأ يحيىٰ بنُ يَعْمَر: «فمَرَتْ به» بالتخفيف، وقرأ غيرُه، «فَمَارَت به»؛ من المِرْية، كقوله: ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ ﴾ [النجم: ١٢]، و«أفتُمْرونَه» ومعناه: فوقعَ في نفسِها ظَنُّ الحَمْل، وارتابَتْ به. ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت ﴾: حانَ وقتُ ثِقَلِ حَمْلِها، كقولك: أقربَت. وقُرِئ: «أُثقِلَت»، علىٰ البناءِ للمفعول، أي: أثقلَها الحمْل، ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا ﴾: دعا آدمُ وحَوّاءُ رَبَّها ومالِكَ أمرِهما الذي هو الحقيقُ بأن يُدْعىٰ ويُلْتَجأ إليه، فقالا: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا ﴾: لئنْ وَهَبْتَ لنا، ....

قال ابنُ جنّي: «معنىٰ «استمرّت به»: مرّت مكلِّفةً نفْسَها ذلك، لأن «استفعل» إنّما يأتي في أكثرِ الأمرِ للطلب»(١).

قولُه: (وقرأ غيرُه: «فَمارَتْ به»): قال ابنُ جني: «وهي قراءةُ عبدِ الله بن عمرو. وهو من: مارَ يَمُورُ: إذا ذهب وجاء. والمعنى واحد. ومنه سُمّي الطريقُ مَوْراً، للذهابِ والمجيءِ عليه».

وقال: «أصلُ قراءةِ يحيىٰ بن يَعْمَر(٢): ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ مثقَّلاً، كقراءة الجماعة، فحذف تخفيفاً لثقلِ التضعيف، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ [الأحزاب: ٣٣] إذا أُخِذ من القَرار. ومنه: «ظَلْتَ»، و«مَسْتُ»، في: ظَلِلْتَ، وَمَسِسْتُ»(٣).

وهذا الذي ذكره ابنُ جنّي أوفقُ للمشهورة(٤) مما ذكره المصنف.

قولُه: (رَبَّها ومالِكَ أمرِهما الذي هو الحقيقُ بأن يُدْعىٰ ويُلْتَجأ إليه): يريد أنهم إذا حَزَبهم أمرٌ خطير دَعَوُا الله. وأمّا تخصيصُ الربّ بالدّعاءِ فللاستعطاف، ولهذا قال: «ومالكَ أمرِهما».

---

(١) «المحتسب» (١: ٢٧٠).

(٢) أبو سليمان يحيى بن يعمر العدواني، تابعي جليل. وهو أول من نقّط المصاحف. مات قبل سنة ٩٠هـ. انظر: «غاية النهاية» (٢: ٣٨١)، و«مرآة الجنان» (١: ٢٧١)، وفيه أنه توفي سنة ١٢٨هـ و«النجوم الزاهرة» (١: ٢١٧).

(٣) «المحتسب» (١: ٢٦٩)، وانظر: «البحر المحيط» (٥: ٢٤٦).

(٤) أي: القراءة المشهورة أو قراءة الجماعة، وهي: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ بالتشديد.

﴿صَٰلِحًا﴾: وَلَدًا سَوِيًّا قد صَلَحَ بَدنُه وبَرِئ. وقيل: وَلَـدًا ذَكَـرًا، لأنَّ الذُّكورةَ مِن الصلاحِ والجَوْدَة. والضميرُ في ﴿ءَاتَيْتَنَا﴾ و﴿لَّنَكُونَنَّ﴾ لهما ولكلِّ مَنْ يَتَناسَلُ مِن ذُرِّيَّتِهما.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ ما طَلَباهُ من الوَلَـدِ الصالحِ السَّوِيِّ، ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ أي: **جَعَلَ أولادُهما له شركاء، علىٰ حذفِ الـمُضافِ** وإقامةِ المُضافِ إليه مَقامه، وكذلك ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ أي: آتىٰ أولادَهما، وقد دلَّ علىٰ ذلك بقوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ حيثُ جمعَ الضمير، وآدمُ وحَوّاءُ بريئانِ من الشِّرك، ومعنىٰ «إشراكِهم فيما آتاهُم الله»: تَسْمِيَتُهم أولادَهم بعَبْدِ العزّىٰ، وعَبدِ مناة، وعبدِ شَمْس، وما أشبَهَ ذلك، مكان: عبدِ الله، وعبدِ الرَّحْمٰن، وعبدِ الرَّحيم.

قال المصنفُ في قولِه تعالىٰ: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١، ٢]: «كما يستغيثُ بعضُ الموالي إذا اعتراهم خطْبٌ بسيّدِهم ووالي أمرهم».

قولُه: (﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ أي: **جَعَلَ أولادُهما له شركاء، علىٰ حذفِ المُضافِ**): روىٰ محيي السنّةِ هذا القولَ عن الحسن وعكرمة، وقال: «فحذف الأولاد، وأقامهما مُقامَهم، كما أضاف فِعلَ الآباءِ إلىٰ الأبناء، فقال: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٥١، ٩٢] ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ [البقرة: ٧٢]»(١).

وقال الزجّاج: «والذي عليه التفسيرُ أنّ إبليسَ جاء إلىٰ حواء، فقال: أتَدْرِين ما في بطْنك؟ فقالت: لا أدرِي! قال: فلعلّه بهيمة! ثم قال: إنْ دعوْتُ الله أن يجعلَه إنساناً، أتسمِّينه باسمِي؟ فسمَّتْه عبدَ الحارث، وهو الحارث»(٢).

---

(١) «معالم التنزيل» (٣: ٣١٤).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٢: ٤٣٧).

....

ورویٰ نحوه محيي السنّة عن ابنِ زيد[١]، وروىٰ أيضاً عن عكرمةَ أنه قال: «خاطب كلَّ واحدٍ من الخلق بقوله: ﴿خَلَقَكُم﴾، أي: خلَق كلَّ واحدٍ من أبيه، وجعل من جنسِه زوجَه»[٢].

قال محيي السنّة: «وهذا قولٌ حسن، لولا قول السلف، مثل عبدِ الله بن عباس، ومجاهد، وسعيدِ بن المسيب، وجماعةٍ من المفسرين: إنه في آدم وحواء»[٣].

وقلت: ما أقول: إن قولَ السلف أحسنُ الأقوال، لأنه لا قولَ غيره، ولا معوَّلَ إلا عليه[٤]، لأنه مقتبسٌ من مشكاة النبوة، وحضرة الرسالةِ صلواتُ الله وسلامه عليه علىٰ ما روينا عن الإمام أحمدَ بن حنبل والترمذي، عن سَمُرةَ بن جُندب، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَـمَّا حَمَـلَت حَوَّاءُ، طافَ بها إبليسُ، وكانَ لا يَعيش لَها وَلَد، فَقالَ: سَمِّيه عَبد الحارث، فَسَمَّتهُ، فَعاش، وكانَ ذَلكَ مِن وَحيِ الشَّيطان وَأمره»[٥].

قال محيي السنّة: «لم يكن هذا إشراكاً في العبادة، ولا أنّ الحارثَ ربُّها، فإن آدم عليه السلام كان نبيّاً معصوماً من الشرْك، ولكن قصدَ إلىٰ أن الحارثَ كان سببَ نجاة الولد، وسلامةِ أمّه، وقد يُطْلق اسم العبدِ علىٰ من لا يُراد به أنه مملوك، كما أن اسمَ الرَّبِّ يُطْلق علىٰ

---

(١) هو عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم العدوي المدني ت١٨٢هـ صاحب «التفسير»، و«الناسخ والمنسوخ»، له ترجمة في «طبقات المفسرين» (٢: ٢٧١).

(٢) «معالم التنزيل» (٣: ٣١٤).

(٣) المصدر السابق (٣: ٣١٤).

(٤) في (أ): «ولا يتعود إلا مهمة».

(٥) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢٠١١٧) والترمذي (٣٠٧٧) والبزار (٤٥٨٠) والطبراني في «المعجم الكبير» (٦٨٩٥) بإسناد ضعيف، وانظر تمامَ تنقيده في التعليق على «مسند أحمد».

....

من لا يرادُ أنه معبود. فعلىٰ هذا قوله تعالىٰ: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ابتداءُ كلام، وأراد به إشراكَ أهْلِ مكَّة، ولئن أراد به ما سبق، فمستقيمٌ من حيثُ كان الأَوْلىٰ بهما ألا يفعلا ما أَتَيا به من الإشراكِ في الاسم»[١].

وقلت: يدفعُ هذا قولُه تعالىٰ: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾، فإنه في الأصنام قطعاً، بل القول: إنه ابتداءُ كلامٍ، وتمامُ تقريرِه أن يقال: إن قولَه تعالىٰ: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ كلام واردٌ علىٰ النفس الواحدة وزوجِها، مضمَّن للامتنانِ عليهما، وطلب الشكر، والتفادي عن الكفران، ولإلزامِهما علىٰ أنفسِهما الشكر، علىٰ سبيلِ المبالغة، علىٰ ما دلّ عليه قولُه تعالىٰ: ﴿مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ أي: من زُمْرتِهم. وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَـٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ الجملة الشرطية مرتبطةٌ بما قبلها بالفاء، وجملة الكلام مفرغٌ في قالب واحد، علىٰ سنن قولِه تعالىٰ: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ ـ أي: شكرُ رزقِكم ـ ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢][٢]. فلو أُجرِي ﴿جَعَلَا لَهُۥ﴾ علىٰ غيرِ ما أُجرِي عليه الأوّل، لاختلَّ النظام، وفات المقصودُ من الإيراد.

وأمّا الهربُ من إثبات ذلك الشركِ لآدم وحوّاءَ فبعيد من البليغ المحيطِ بأساليب البلاغة؛ فإن باب التشديدِ والتغليظ غيرُ مسدود، وإنّما لزم الفساد أنْ لو حُمِل علىٰ الشركِ الحقيقيّ.

وأمّا جمعُ الضمير في ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فإن الفاء السببيةَ التي تستحقُّ أن تسمىٰ بالفاء الفصيحةِ في قوله تعالىٰ: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تقتضي أن يَجْرِيَ الكلامُ علىٰ مشركي مكّة، لأنها مع متعلّقِها المحذوف[٣] كالتخلّصِ من قصة آدمَ وحواء، إلىٰ توبيخ المشركين،

---

(١) «معالم التنزيل» (٣: ٣١٣).

(٢) وفي الآية إيجاز بالحذف.

(٣) أي: التقدير: «عما يشركون بالله»، والكلام من باب التخلص ـ كما قال ـ من موضوع إلى آخر.

....

علىٰ ما أشار إليه محيي السنّةِ بقوله: «ابتداءُ كلامٍ، وأراد به إشراكَ أهلِ مكة»[١]. يعني إذا كان الأمر علىٰ ما ذكر، وهو مثْلُ هذه التسميةِ التي لها محاملُ كثيرة في التبرِّي عن الشرك، مأخوذاً علىٰ أبي البشر، ومُسمًّى بالشرك، فما بالُ فعلِ هؤلاء المشركين، من تسميةِ الحجَرِ والخشب بالآلهة، والعكوفِ علىٰ عبادتها، وتصريحِ اسم الشركاء عليها؟ ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ثم ابتُدِئ مبيّناً موبِّخاً: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ إلىٰ آخرِ الآياتِ الواردةِ في الأصنام[٢].

هذا، وإن هذه السورة الكريمة: من مُفتَتَحِها إلىٰ مختتمها، مفرغةٌ في قالبٍ واحد، علىٰ نمطٍ عجيب، وأسلوبٍ غريب، لأنه تعالىٰ افتتحها بقولِه: ﴿الٓمٓصٓ * كِتَـٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١-٢] نهاه صلواتُ الله وسلامهُ عليه عن ضيقِ الصدر، والتحرّجِ عما كان يلْقَىٰ من المشركين من أنواعِ الأذىٰ، لئلّا يتوانىٰ في التبليغِ والإنذار، ثم قصّ عليه قصصَ الأنبياءِ الماضية، والقرونِ السالفة، وما كان مغبّةُ[٣] تكْذيبهم، وعاقبة صبر الأنبياء، تشجيعاً له، وتثبيتاً لقلبِه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[٤].

ثم ختم قصصَ الأنبياء بذكْر موسىٰ عليه السلام وأطنبَ في أحوالِ أمّته، إلىٰ أن انتهت إلىٰ قصةِ بلعام وأحواله، وكانت قصتُه شبيهة بقصة اليهودِ الذين أدركوا زمن الرسول ﷺ وآذَوْه، وأورد قوله: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٧] علىٰ ما سبق. فكـرّ راجعاً إلىٰ ما بُـدئتْ به السورة، من: تكذيبِ القـوم، وإعراضِهم

---

(١) «معالم التنزيل» (٣: ٣١٤) وقال البغوي: «وفي الآيةِ قولٌ آخرُ، وهو أنه راجعٌ إلى جميع المشركين من ذريةِ آدم».

(٢) يعني الآيات (١٩١-١٩٨) من سورة الأعراف.

(٣) المغبّة: العاقبة.

(٤) اقتباس من سورة هود، الآية ١٢٠.

....

عن آيات الله، وما كان يتحرّجُ منه صدرُه صلوات الله عليه من قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، وقوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ﴾ أي: يسألونك أيانَ مُرْساها؟ مقترحين، فلا تُبالِ بهم، وأجب عن سؤالِهم وأنت منشرحُ الصدر: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾ إلىٰ آخر نيّفٍ وعشر آيات[1]، علىٰ طريقةِ الأسلوبِ الحكيم.

وتحريرُه: أني ما بُعثْت لأن أكشفَ لكم عن أيّانَ الساعة، لأنه من الأمورِ الإلهية، لا اطّلاعَ لي عليه، ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾، ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾، وإنّما بُعِثْت لأكشفَ لكم عن الاستعدادِ لها، والعمل بما ينفعُكم، ومما هو أهمّ الأشياء، وأدْعَىٰ إليه أنْ أكشفَ لكم عن قبحِ ما أنتم فيه من الشركِ بالله، وأوقِفكم ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣]. ألا ترونَ إلىٰ أبيكم حين سمّىٰ بعضَ بنيه بما يُتوَهَّمُ منه أنه أدنى الشرك، كيف نعَى عليه، وسجّل بقبحِه؟ فكيف بما تفعلون أنتم؟ وهلمّ جراً[2] إلىٰ آخر الآيات.

ومن هذا الأسلوبِ ما رويناه عن البخاريِّ ومسلم عن أنس: أن رجلاً سأل النبيَّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله، متَىٰ السَّاعةُ؟، قال رسول الله ﷺ: «ما أعدَدتَ لَهَا؟» فكأنَّ الرَّجُل استكانَ، ثُمّ قال: ما أعدَدتُ لها كثيرِ صِيامٍ ولا صدَقة، ولكنّي أحِبُّ الله ورسولَه. قال: «أنتَ مَعَ مَن أحبَبت»[3]، وفي رواية: قال أنس: «ما فَرِحنَا بشَيء فَرَحَنا بقول النبيّ عليه الصلاة والسلام: «أنتَ مَع مَن أحبَبت». قال أنس: فأنا أحِبُّ النبيَّ ﷺ وأبا بكر وعُمَر، وأرجو أن أكونَ معهم بحُبّي إيَّاهم، وإنْ لم أعملْ أعمالَهم[4].

(١) ويقصد بها الآيات (١٨٧-٢٠٠) من سورة الأعراف، والله أعلم. وهي واردة على الأسلوب الحكيم، حيث سأل المشركون عن وقت الساعة، فصرفهم الله إلى ما هو أهمّ من ذلك، وهو الاستعداد للساعة...».

(٢) تعبير يقال لاستدامة الأمر واتصاله.

(٣) أخرجه البخاري (٧١٥٣) ومسلم (٢٦٣٩).

(٤) وهي مذكورةٌ في «صحيح البخاري» (٣٦٨٨) و«صحيح مسلم» (٢٦٣٩).

ووَجْهٌ آخَر، وهو أن يكونَ الخطابُ لقُريشٍ الذين كانوا في عَهْدِ رسولِ الله ﷺ، ..

الاستكانة: الذل والخضوع.

وقلت ـ والعلم عند الله ـ: انظرْ إلىٰ هذا العلاجِ الصائب لمرضىٰ القلوب، فإن الطبيبَ الحاذق قد يحتاج في علاجِه إلىٰ تدبير دفع الأخلاطِ الرديئة، لإزالة المرض، وقد يحتاجُ إلىٰ تدبيرِ حفظِ الصحّةِ فقط.

والمشركون لمّا سألوا عن وقتِ الساعة، ولم يكنْ أهمَّ شيءٍ إلا قلْع الشرك، فقيل: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم﴾ إلىٰ آخر الآيات، أُدرِجَ في الجواب الحكيمِ معرفةُ المسؤول عنه، وأنها ممّا استأثر الله تعالىٰ بها. ولم يُحتَجْ في جوابِ الصحابيِّ إلىٰ هذا القدْر، فلم يُذْكر. يعني: أنك بصدد أنْ يجبَ عليك ألّا يخْطرَ ببالك هذا، لأنك ممن يؤمن أن علْم ذلك مختصٌّ بالله تعالى. وأمّا إزالةُ الشرك فإنك قد فرغْت منها، بقي عليك ما يخلّصُك من أهوالِ يوم القيامة من العمل، «فَما أعْدَدْتَ لَـهَا؟» فأجاب هو أيضاً بالكلمة الحكيمة الجامعة: لٰكِنِّي أحِبُّ اللهَ ورسولَه.

فانظر إلىٰ هذه الرموزِ التي تحيّرُ العقول!

قوله: (**ووَجْهٌ آخَر، وهو أن يكونَ الخطابُ لقُريشٍ**): روىٰ محيي السنّة عن ابن كَيْسان[1]: «هم الكفّار، سَمَّوْا أولادهم: عبد العُزَّىٰ، وعبد اللّات، وعبد مَناة»[2].

وقال صاحب «الانتصاف»: «وأقربُ من هذين التفسيرَين أنْ يرادَ جِنْسَا الذَّكَرِ والأنثىٰ، من غير قصدٍ إلىٰ معينٍ معلوم. أي: خلَقَكم جنْساً، وجعل أزواجَكم منكم، لتسكنوا إليهن. فلمّا تغشّىٰ الجنْسُ جنسَه الآخر، جرىٰ من هذين الجنسَين كذا وكذا.

---

(١) لعله: صالح بن كيسان المدني، من فقهاء المدينة، ومن رواة الحديث الثقات. مات سنة ١٤٠هـ. انظر: «تهذيب التهذيب» (٤: ٣٩٩)، و«الأعلام» (٣: ١٩٥).

(٢) «معالم التنزيل» (٣: ٣١٤).

وهم آل قُصَيّ،...

ويجوز إضافةُ الكلام إلىٰ الجنس، تقول: «قَتَل بنو تميم فُلاناً»، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ﴾ [مريم: ٦٦][1]، ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢][2].

وعلىٰ التفسير الأول أضاف الشركَ إلىٰ أولاد آدمَ وحواء، وهو واقع من بعضهم، وعلىٰ الثاني أضافه إلىٰ قُصَيّ وعَقِبِه[3]، وأراد بعضَهم، ويَسْلمُ بهذا مِن حذْف المضافِ اللازمِ للأول، ومن استبعادِ إرادةِ قُصَيّ بهذا. والظاهرُ من قوله: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أن المراد الجنس»[4].

تمّ كلامه.

قلت: إنْ لزمَ من التفسيرَين ما ذكرَ من المحذوف، لزم من تفسيرِه أيضاً إجراءُ جميعِ ألفاظ الآيةِ علىٰ الأوجهِ البعيدة. والتأويلُ ما نصّ عليه من أُوحي إليه التنزيل، كما سبق بيانه. والله أعلم.

قوله[5]: (وهم آل قُصَيّ) أي: الذين كانوا في عهدِ رسولِ الله ﷺ آل قُصَيّ، أي: أولادُهُ، يدلُّ عليه قوله: «ويراد هو الذي خَلَقَكُم من نفسِ قُصَيّ»، والأقربُ ما ذكَرَهُ في الأنعام: «قال أبو جهلٍ: إذا ذهَبَ بنو قُصَيٍّ باللِّواءِ والسِّقايَةِ والحِجابةِ والنُّبُوَّةِ، فماذا يكون لسائِرِ قريش؟» لأنه دلَّ على أنّ قُصياً من قريش.

قال محمد بن هشام صاحب «السِّيَـر»: النّضر بن كنانة قريش، فمن كان من ولدِهِ فهو

---

(١) وتمام الآية ﴿لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾.

(٢) والشاهد في الآيات إضافة الفعل إلى «الإنسان» والمراد الجنس.

(٣) أي: أولاده.

(٤) «الانتصاف بحاشية الكشاف»: (٢: ١٨٦).

(٥) هذه الفقرة إلىٰ آخرها (إلىٰ قوله: «شرف مكة كله») أثبتُّها من (ط).

ألا ترىٰ إلىٰ قولِه في قِصَّةِ أُمِّ مَعْبَد:

فيا لَقُصَيٍّ ما زَوَىٰ اللَّهُ عنكُمُ ... بهِ مِن فَخارٍ لا يُبارىٰ وسُؤدُدِ

قرشيٌّ، وإلّا فلا، وقيل: مَن كان مِن وَلَدِ فهر بن مالِك بن النَّضرِ فهو قرشيّ، وسُمّي قريش لتجمُّعِها من تفرُّقِها، كذا في «جامع الأصول»[1]. وفي «الجامع» أيضاً: قيل: أولُ من سُمّي قريشاً قُصَيّ، وفيه بُعد، والأكثر الأوّل[2]، وقال محمد بن هشام: كان قُصَيّ أوّل من بني كعب ابن لؤيّ أصاب مُلكاً أطاع به قومه، وكانت إليه الحجابة والسقاية والرِّفادة واللِّواء، فحاز شَرَفَ مكة كُلَّه.

قولُه: (في قِصَّةِ أُمِّ مَعْبَد)[3]: هذه القصةُ مذكورةٌ في «شرح السنّة»، و«الاستيعاب» لابن عبدِ البرّ، وكتاب «الوفا» لابن الجَوْزي. ونحن نوردُ روايةَ «شرح السنّة»:

قال: إنّ رسولَ الله ﷺ حينَ أُخْرِجَ من مكة، خرج مهاجراً إلىٰ المدينةِ هو وأبو بكر رضي الله عنه وعامرُ[4] وعبدُ الله بنُ أُرَيْقِط[5]، فنزلوا خيمةَ أمّ مَعْبَد، فرأى رسول الله ﷺ شاةً خلَّفَها الـجَهْدُ[6] عن الغنم، فدعا بها رسول الله ﷺ فمَسَح بيده ضَرْعَها، وسمَّىٰ اللهَ،

---

(١) «جامع الأصول» لابن الأثير (١٢: ٨٠٥).

(٢) المصدر السابق (١٢: ٨٧).

(٣) أم معبد هي: عاتكة بنت خالد الخزاعية، وهي التي نـزل عليها الرسول ﷺ في هجرته إلى المدينة. انظر: «الاستيعاب» (٤: ١٨٧٦)، و«أسد الغابة» (٧: ٣٩٦)، و«الإصابة» (٨: ٣٠٥).

(٤) هو: عامر بن فهيرة، مولىٰ أبي بكر الصديق، يكنى أبا عمرو، وهو من السابقين إلى الإسلام، مات سنة ٤هـ. انظر: «الاستيعاب» (٢: ٧٩٦)، و«أسد الغابة» (٣: ١٣٦)، و«الإصابة» (٣: ٥٩٤).

(٥) هو دليل النبي ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه في هجرتهما إلى المدينة. وفي إسلامه خلاف. انظر: «تجريد أسماء الصحابة» (١: ٢٩٦)، و«الإصابة» (٤: ٥).

(٦) الجَهْد ـ بفتح الجيم وإسكان الهاء ـ: الهُزال.

....

ودَعا لها، فتَفَاجَّتْ عليه[١]، ودرَّت[٢]، فدعا بإناء، فحلَبَ فيه ثَجّاً[٣]، ثم سقاها حتى رَوِيت، وسَقَى أصحابَه حتّى رَوُوا، ثم شربَ آخِرَهم، ثُم حَلَبَ فيها ثانياً، ثم غادره عندها وارتحلوا. فجاء زوجُها، فذكرت القصة.

قال أبو مَعبَد: هو، والله، صاحبُ قريشٍ الذي ذُكِر لنا من أمره ما ذُكر!

فأصبح صوتٌ بمكّة عالياً، يسمعون الصوت، ولا يدرون مَنْ صاحبُه، وهو يقول[٤]:

جـزَىٰ اللهُ ربُّ النـاسِ خـيرَ جَزائـهِ ... رَفيقَـيْنِ قَـالا خَيمَتَـيْ أُمِّ مَعْبَـدِ[٥]

هُمـا نَزَلاهـا بالـهُدَىٰ واهتَـدَتْ بِـهِ ... فقـد فَـازَ مَـنْ أمسَـىٰ رفيـقَ محمَّـدِ

فيَـا لَقُصَـيٍّ مـا زَوَىٰ اللهُ عـنكُمُ ... بـه مِـنْ فَعَـالٍ لا يُجازَىٰ وسُـؤدَدِ[٦]

لِـيَهْنِ بَنِـي كَعْـبٍ مَقـامُ فَتـاتِهِمْ ... ومَقْعـدُها للمـؤمنينَ بمَرْصَـدِ

سَـلُوا أُختَـكُم عـنْ شـاتِها وإنائهـا ... فإنَّـكُمُ إنْ تَسـألوا الشـاةَ تشـهَدِ

دَعَاهـا بِشـاةٍ حائـلٍ فتَحلَّبَـتْ ... عليـه صَريحـاً ضَرَّةُ الشَّـاةِ مُزْبِـدِ[٧]

فغادَرَهـا رَهْنـاً لَـدَيْها لحالِـبٍ ... يُرَدِّدُهـا في مَصـدَرٍ ثُـمّ مَـوْرِدِ[٨]

---

(١) أي: فتحت ما بين رجليها للحلْب.

(٢) يعني: كثر لبنها.

(٣) الثجّ: السَّيلان.

(٤) هذه الأبيات منسوبة لبعض مسلمي الجن كما سيأتي.

(٥) قالا: من القيلولة.

(٦) فيا لَقصي ـ بفتح اللام ـ: للتعجّب، أو نداء، والتقدير: يا آل قصي. وقوله: «زَوَىٰ» أي: باعَدَ عنكم الخير والفضل. وفَعال ـ بفتح الفاء ـ: الفعل الحسن. والسؤدد: السيادة.
ويُلاحظ أن رواية الزمخشري في «الكشاف»: «مِنْ فَخَار لا يبارَىٰ» موضع: «من فعال لا يجازىٰ».

(٧) شاة حائل، أي: لا تحمل. تحلّبت عليه صريحاً، أي: درّت باللبن الخالص. والضرة: لحم الضّرع. والمزبد: الذي يقذف بالزَّبَد.

(٨) معنىٰ البيت: أنه ترك الشاة عندها مرتهنة بأنها تدرّ.

قال: والصوتُ صوتُ مسلم الجنّ، أقبلَ من أسفل مكة، حتى خرجَ بأعلاها»[١].

وزاد ابنُ عبد البرّ: «فلمّا سمع ذلك حسانُ بن ثابت، أجاب:

لقد خاب قومٌ غابَ عنهُم نبيُّهُمْ ... وقُدِّسَ مَنْ يَسْري إليهم ويَغْتدِي[٢]
ترحَّلَ عن قومٍ فَضَلَّتْ عقولُهُمْ ... وحَلَّ علىٰ قومٍ بنورٍ مُجَدَّدِ
هَدَاهُمْ به بَعْدَ الضَّلالةِ ربُّهمْ ... وأرْشَدَهُمْ، مَن يَتبَعِ الحقَّ يَرْشُدِ
وهل يَستَوِي ضُلَّالُ قومٍ تَسَفَّهوا ... عَمايتَهُم، هادٍ به كُلّ مُهْتَدِ[٣]
لقد نَزَلَت منهُ علىٰ أهلِ يَثْرِبٍ ... رِكابُ هُدىً حلَّتْ عليهم بأسعُدِ
نَبِيٌّ يَرَىٰ ما لا يَرىٰ الناسُ حولَهُ ... ويتلُو كتابَ الله في كلِّ مَشْهَدِ
وإنْ قالَ في يومٍ مَقالةَ غائبٍ ... فتصديقُها في اليوم أو في ضُحىٰ الغَدِ
لِيَهْنِ أبا بكْرٍ سَعادةُ جَدِّهِ ... بصُحبتِهِ، مَنْ يُسْعِدِ اللهُ يَسْعَدِ[٤]
لِيَهْنِ بَنِي كَعْبٍ مُقامُ فَتاتِهِمْ ... ومسعدُها للمؤمنينَ بمَرصَدِ»[٥]

(١) «شرح السنّة» للبغوي (١٣: ٢٦١-٢٦٩). وانظر القصة والأبيات في: «الاستيعاب» (٤: ١٩٥٨-١٩٦٢)، و«الوفا» لابن الجوزي (١: ٢٤٢-٢٤٦).

(٢) السُّرىٰ: السير ليلاً. والاغتداء: السير في الصباح الباكر.

(٣) كذا في الأصول الخطية، وكذا ورد في «الاستيعاب» (٤: ١٩٦١)، و«تاريخ دمشق» (٣: ٣٣٠ و٣٣٣)، و«سير أعلام النبلاء» (٢: ٣٧٥ ـ قسم السيرة)، و«تهذيب الكمال» (١: ٣٢٣)، وغيرها. وورد في «ديوان حسان» ص٣٧٦، و«الطبقات الكبرى» لابن سعد (١: ٢٣٢)، و«المستدرك» للحاكم (١: ٢٢٣) بلفظ: «عمًىٰ وهداةٌ يهتدون بمُهتدِ».

(٤) الجَدّ ـ بفتح الجيم ـ: الحظّ.

(٥) «الاستيعاب» (٤: ١٩٦١).

ويُرادُ: هو الذي خلَقكم من نفسِ قُصَيّ، وجعلَ من جِنسِها زوجَها عربيةً قُرَشيّةً ليَسكُنَ إليها، فلما آتاهما ما طَلَبا من الوَلَدِ الصالحِ السَّوِيِّ جَعَلا له شُركاءَ فيما آتاهما، حيثُ سَمَّيا أولادَهما الأربعةَ بعَبْدِ منافٍ، وعبدِ العُزّىٰ، وعَبْدِ قُصيٍّ، وعبدِ الدّار، وجعلَ الضميرَ في ﴿يُشْرِكُونَ﴾ لهما ولأعقابِهما الذين اقتَدَوْا بهما في الشِّرْك، وهذا تفسيرٌ حَسَنٌ لا إشكال فيه.

وقُرِئ: (شِرْكًا)، أي: ذوي شِرْك، وهم الشركاء، أو أحدَثا لله إشراكًا في الوَلَد.

قال المصنف في «الفائق»: «معنىٰ البيت: تعالوا يا قُصَيّ، لتتعجَّب منكم فيما أغفَلْتموه من حظّكم، وأضعْتموه من عِزّكم، بعِصْيانكم رسولَ الله ﷺ، وإلجائكم إياه إلىٰ الخروج من بين أظهُرِكم»[1].

«ما»: مبتدأٌ بمعنىٰ الذي، والخبر: «من فَخَار»، و«لا يُجازَىٰ»: صفتُه، ويروىٰ: «لا يُبارَىٰ»، زَوَىٰ فلانٌ المالَ عن وارثه. والضمير في «به» لرسول الله ﷺ، والباءُ للسببية. «لا يُبارىٰ»، مِن: بارَيْتُ الرجُل: إذا فَعلْتَ مثْلَ فِعلِه.

المعنىٰ: تعالَوا، يا لقُصَيّ[2]، لنتعجَّب منكم مِن فَوْت أمرٍ عظيم، وفَخَارٍ لا يُدْرَك، بسببِ رحلة الرسول ﷺ من عندِكم.

قولُه: (عَبْدِ قُصَيٍّ، وعبدِ الدّار) أضافَ قُصَيٌّ ولَدَيْه إلىٰ صَنَمَيْه: مَناف والعُزّىٰ، وواحداً إلىٰ نفسه، وآخرَ إلىٰ دارِه، وهي دارُ النَّدوة.

قولُه: (وقرئ: «شِرْكاً») بكسرِ الشين وسكونِ الراء: نافع وأبو بكر[3].

---

(١) انظر: «الفائق في غريب الحديث» (١: ٩٩).

(٢) أي: يا آل قصيّ.

(٣) انظر: «الكشف عن وجوه القراءات» (١: ٤٨٥). و«حجة القراءات» ص٣٠٤.

[﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ * وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴾ ١٩١-١٩٣]

أُجْرِيَت الأصنامُ مُجْرىٰ أُولي العِلمِ في قوله: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾، بناءً علىٰ اعتِقادِهم فيها وتَسميتِهم إيّاها آلهة. والمعنىٰ: أَيُشْرِكون ما لا يَقدِرُ علىٰ خلقِ شيءٍ كما يَخلقُ الله، وهم يُخلقون؟ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ خالقُهم، أو: لا يَقدِرُ علىٰ اختِلاقِ شيء، لأنه جَماد، وهم يُخلَقون؛ لأنَّ عَبَدَتَهم يَختَلِقونَهم، فهم أعجَزُ مِن عَبَدَتِهم، ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ ﴾: لِعَبَدَتِهم، ﴿نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ فيدفَعون عنها ما يَعتَريها من الحوادث، بل عَبَدَتُهم هم الذين يَدفَعونَ عنهم ويُحامُونَ عليهم.

قال الزجاج: «(شركاً) مصدر: شَرِكْت الرجُلَ أشرُكه شِرْكاً، أي: جَعَلا له ذا شِرْك»[1].

قولُه: (أوْ لا يَقْدِرُ علىٰ اختِلاقِ شيء)، الجوهري: «خَلَق الإفْكَ، واخْتَلَقَه، وتَخَلَّقه: إذا افتراه، يقال: هذه قصيدةٌ مَخلوقة، أي: مَنحولةٌ إلىٰ غير قائلها».

وإنّما قدَّر: «لا يَقْدرُ علىٰ خَلْق شيء» لتُطابِق قرينتَها: ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾، وهذا أبلغُ مما لو قيل: ما لا يَخْلُقُ شيئاً ولا يَنصُرُهم.

قولُه: (ويُحَامُونَ عليهم)، الجوهري: «حَامَيْتُ علىٰ ضَيفي: إذا احتَفَلْتُ[2] له».

قال الشاعر:

حَامَوا علىٰ أضيافِهِمْ فشَوَوا لَـهُمْ[3]

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٢: ٤٣٧-٤٣٨) بتصرف يسير.

(٢) في (أ) و(ج): «اختاقت».

(٣) تمامُه: «مِن لحمِ مُنْقِيَةٍ ومِنْ أكبادِهِ»، وقائلُه مجهول.

انظر: «ديوان الأدب» للفارابي (٤: ١٢١)، و«معجم مقاييس اللغة» لابن فارس (٥: ٤٦٥).

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾: وإن تدعُوا هذه الأصنامَ ﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: إلىٰ ما هو هُدىً ورشاد، وإلىٰ أن يَهْدُوكُم. والمعنىٰ: وإنْ تَطلُبوا منهم كما تَطلُبونَ من الله الخيرَ والهدىٰ، ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ إلىٰ مُرادِكم وطَلِبَتِكم، ولا يُجيبوكم كما يجيبُكم الله، ويدلُّ عليه قولُه: ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾ أم صَمَتُّم عن دُعائهم، في أنه لا فلاحَ معهم.

قولُه: (وإلىٰ أنْ يَهدُوكُم) عطفٌ تفسيريٌّ علىٰ قوله: «إلىٰ ما هو هُدىً».

وفي رواية: «أوْ إلىٰ أنْ يَهْدُوكُم» يعني: يجوزُ أن يُحمَل الهُدَىٰ علىٰ الرشاد، وهو الدلالةُ الموصلةُ إلىٰ البُغْية، وأن يُحمَلَ علىٰ مجرّد الدلالة. والظاهر الأول، يدلُّ عليه قولُه: «وإنْ تطلبوا منهم الهُدَىٰ كما تَطْلبون من الله الخيرَ والهدى، ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ إلىٰ مُرادِكم».

قولُه: (يدلُّ عليه قوله: ﴿فَٱدْعُوهُمْ﴾) أي: علىٰ أن معنىٰ ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾: لا يُجيبوكم كما يجيبكم الله، ويمكن أن يراد: والدَّليل على أن الضمير في ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ للأصنام، والخطاب للمشركين، وأن المعنىٰ: لا يُجيبوكم كما يُجيبُكم الله[1]، وفيه إشارةٌ إلىٰ ترجيح هذا القولِ علىٰ قولِ مَن قال: إنّ الضميرَ للمشركين، والخطابَ مع المسلمين.

ذكر الواحِديُّ ومحيي السنّةِ ما ينبئُ عن هذا[2]. وتقرير الاستدلال أنّ قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾، المرادُ منهم: الأصنام، بالاتّفاق، وهو واردٌ علىٰ التعليل السابق، بدليل كلمة ﴿إِنَّ﴾، وقوله: ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ مرتّب عليه تَرتُّبِ الحُكم على الوصْفِ المناسب، وفيه معنىٰ الدعاءِ والاستجابة، ولو أُريد به غير ما فسّر لاختَلّ النظْم.

---

(١) من قوله: «ويمكن أن يراد» إلى هنا أثبته من (ط).

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (٣: ٣١٥). وقال الواحدي في «الوجيز» (١: ٣١١): ثم خاطب المؤمنين فقال: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ يعني المشركين. انتهى.

فإن قُلتَ: هلّا قيل: أم صَمَتُّم؟ ولِـمَ وُضِعَتِ الجملةُ الاسميةُ موضعَ الفِعْلية؟ قلتُ: **لأنَّهم كانوا إذا حَزَبَهم أمرٌ** دَعُوا اللهَ دونَ أصنامِهم، كقولِه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾ [الروم: ٣٣]، فكانت حالُهم المُستَمِرَّةُ أن يكونوا صامِتِينَ عن دَعْوتِهم، فقيل: إنْ دَعَوتُموهم لم تفتَرِق الحالُ بينَ إحداثِكم دُعاءَهم، وبينَ ما أنتُم عليه من عادةِ صَمْتِكم عن دُعائِهم.

[﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۞ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ ١٩٤ -١٩٥]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي: تَعبُدونهم وتُسَمُّونَهم آلهةً من دونِ الله ﴿عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ ﴾ وقولُه: ﴿عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ ﴾ استهزاءٌ بهم، أي: قُصارىٰ أمرِهم أن يكونوا أحياءً عُقلاءَ، فإن ثبتَ ذلك فهم عِبادٌ أمثالُكم لا تفاضُلَ بينكم، ثم أبطلَ أن يكونوا عبادًا أمثالَهم فقال: ﴿ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآ ﴾ ....

وقوله: (لأنهم كانوا إذا حَزَبَهم أمرٌ): تلخيصُه: أن قوله: ﴿أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ﴾: جملةٌ فعلية تدلُّ على التجدّد، وقوله: ﴿أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ﴾ اسميةٌ تدلُّ علىٰ الثبوتِ والاستمرار، فعُطفت لإرادةِ التجدُّد في الأولى، والثباتِ في الثانية؛ لأنّ كونَهم صامتين عن دعوة الأصنام، إذا نابَهم بلاءٌ أو مِحْنة، ثابتٌ مستمرٌّ، ما شُهِدَ منهم قطُّ أنهم: إذا ألَـمَّ بهم نازلةٌ دَعَوُا الأصنام، بل ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾.

وفي معنىٰ الآيتين التقابلُ، لأنّ التقدير: إنْ تَطْلبوا منهم الخيرَ والـهُدَىٰ لا يَتَّبِعوكم إلى مُرادِكم، وإن تطلبوا منهم أن يَدفَعوا عنكم الشرّ، لا يُجيبوكم البتّة، ولذلك أنتم صامتون عن دُعائهم، فأدمَجَ في الكلام بطريقِ المفهوم اضطرارَهم إلى الله، والتجاءَهم إليه، تَتْميماً لِذمِّ آلِـهَتِهم.

وقيل: ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾: مملوكون أمثالُكم. وقرأ سعيدُ بن جُبير: «إنِ الذينَ تَدْعُونَ من دون الله عبادًا أمثالَكم» بتخفيفِ «إن»، ونَصْبِ «عبادًا أمثالَكُم»، والمعنىٰ: ما الذين تَدْعُونَ من دونِ الله عِبادًا أمثالَكم، علىٰ إعمالِ «إن» النافيةِ عملَ «ما» الحِجازية، ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ واستَعينوا بهم في عَداوتي، ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ جميعًا أنتم وشركاؤكم، ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ فإني لا أُبالي بكم، ولا يقولُ هذا إلا واثقٌ بعِصْمةِ الله، وكانوا قد خَوَّفُوه آلهتَهم فأُمِرَ أن يخاطبَهم بذلك، كما قال قومُ هُودٍ له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤] فقال لهم: ﴿أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥].

قولُه: (وقرأ سعيدُ بن جُبَيْر: «إنِ الذينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ الله عباداً أمثالَكم»)[١].

قال أبو البقاء: «(إنْ) النافية لا تعمل عند سيبويه، وخالفه المبرّد»[٢].

قال ابنُ جِنّي: «(إنْ) هذه بمنزلة «ما»، أي: ما الذين تَدْعون من دون الله عباداً أمثالَكم، فأعْمَلَ «إنْ» إعمالَ «ما» الحجازية[٣]، وفيه ضَعْف، لأن «إن» هذه لم تختصّ بنفْي الحاضر اختصاصَ «ما» به، فتجري مَجرىٰ «ليس» في العمل، المعنىٰ: إنّ هؤلاء الذين تدْعون من دون الله إنّما هي حجارة، فهم أقلُّ منكم، لأنكم عُقلاءُ، وهي جَماد[٤]، فكيف تعبدون ما هو دونكم؟

فإن قلت: كيف تصنعُ بقراءة الجماعة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾، إذ التقدير: أنهم مخلوقون كما أنتم أيها العُبّاد مخلوقون؟ فكيف أثبَتَ في هذه ما نفاه في تلك؟»[٥].

---

(١) لتمامِ الفائدة انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٧: ٣٤٢)، و«البحر المحيط» (٥: ٢٥٠).

(٢) «التبيان في إعراب القرآن» (١: ٦٠٨).

(٣) ليس في «المحتسب»: (الحجازية)، وهي التي تعمل عمل (ليس).

(٤) ليس في «المحتسب» قوله: (وهي جماد) بل فيه بدل ذلك: (ومخاطبون).

(٥) «المحتسب» (١: ٢٧٠). وقوله: «التقدير: أنهم مخلوقون...» هو الجواب عنده، وليس تتمة السؤال.

[﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ ١٩٦ - ١٩٧]

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ﴾ أي: ناصِري عليكُم الله، ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾: الذي أَوحىٰ إليَّ كِتابَه، وأعزَّني برِسالتِه، ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: ومن عادتِه أن يَنصُرَ الصالحينَ من عبادِه وأنبيائِه ولا يَخذُلَهم.

قلت: يجوزُ أن يكون الإخبارُ في قراءة الجماعة بمعنىٰ الإنكار، كما سبق في قوله تعالىٰ حكايةً عن فرعون: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡ﴾ [الأعراف: ١٢٣]، فيَحسُنُ حينئذ تَرتُّبُ قوله: ﴿فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾، أي: ليسوا أمثالكم، فجرِّبوهم بالدعاء ليستجيبوا لكم إن كانوا أمثالكم. ويكون الاستفهام في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآ﴾ للإنكار وتقرير عدم المساواة.

قولُه: (وأعزَّني برسالتِه) هو عَطفٌ تفسيريٌّ علىٰ قوله: «أوحىٰ إليَّ كِتابَه»، يعني قوله تعالىٰ: ﴿نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وُضع مَوضِعَ: أرسَلَني رَسولاً، لأنّ النبيّ: صاحبُ المعجزة، والرسول: الذي جمعَ بين المعجزة والكتاب.

وقلت: يمكن أن يُكشَفَ عنه بأبسط من هذا، وأن يقال: إنّما خُصّ وصفُ اسم الذات في هذا المقام بإنزال الكتاب، وجُعِلَت الآيةُ تعليلاً لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ للدلالة علىٰ تفخيم أمر المُنزَّل، وأنه الفارقُ بين الحقِّ والباطل، وأنه القامعُ لضلالات الكفر، والمُجلِّي لظلماتِ الشرك، والمُفحِمُ لألسُن أرباب البيان، المُعْجِزُ الباقي في كلِّ أوان، وهو النور المُبين، والحبلُ المتين[1]، وبه أصلحَ الله شؤونَ رسولِه،

---

(١) من قول النبي ﷺ في فضل القرآن: «وَهُوَ حَبْلُ الله المَتِينُ، وهو الذِّكْرُ الحَكيم، وهو الصراطُ المستقيمُ، هو الذي لا تَزيغُ به الأهواءُ، ولا تَلْتَبِسُ بِهِ الألسِنَةُ، ولا يشْبَعُ منه العلماءُ، ولا يَخلَقُ علىٰ كثرةِ الردِّ، ولا=

[﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ ١٩٨]

﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ﴾: يُشبِهونَ الناظرينَ إليك، لأنهم صَوَّروا أصنامَهم بصورةِ مَنْ قَلَّبَ حَدَقَتَه إلى الشيءِ يَنظُرُ إليه، ﴿وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾: وهم لا يُدرِكونَ المرئيّ.

صلواتُ الله عليه، حيث كمَّل به خُلقَه، وأقامَ به أَوَدَه، وأفسدَ به أباطيلَ المُعطِّلة، وأفحَمَ مُلفَّقات المُعارِضة.

ومن ثَم جيءَ بقولِه تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1] كالتذييل والتقرير لِما سبق، والتعريض بمَن فقد الصلاحَ بالخِذلانِ والمَحْق.

المعنىٰ: إنّ وليّيَ الله الذي نزّل الكتابَ المشهور، الذي تَعْرفون حقيقتَه، ومثلُ ذلك يتولّىٰ الصالحين، ويَـخْذُل الظالمين.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ الآيتين كالمقابل لها.

وإلى التذييل أشارَ المصنف بقولِه: «ومن عادته أن يَنصُرَ الصالحين».

قولُه: (﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ﴾: يُشبِهونَ الناظرينَ): قال الإمام: «إن حمَلْنا هذه الصفات علىٰ الأصنام، قلنا: المرادُ من كونِها ناظراً: كونُها مُقابِلةً بوجوهِها وجوهَ القوم، وإن حملْناها علىٰ المشركين، فالمعنىٰ: أنهم وإنْ كانوا يَنْظرون، إلا أنهم لشدّةِ إعراضهم عن الحقِّ، لم ينتفعوا بذلك النظر والرؤية، فصاروا كأنهم عُمْي»[2].

= تَنْقضي عجائبُه، ...» رواه الترمذي، (٢٩٠٦) وقال: هذا حديث لا نعرفه إلّا من هذا الوجه، وإسناده مجهول»، وأخرجه البزار (٨٣٦) والدارمي (٣٣٣١) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣: ٣٣٥) عن علي بن أبي طالب.

(١) والشاهد في الآية أنها تذييل وتقرير لتوكيد الآيات قبلها، وهي في الوقت نفسه تعريض بغير الصالحين.

(٢) «مفاتيح الغيب» (١٥: ٧٧).

[﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ ١٩٩]

﴿ٱلْعَفْوَ﴾: ضِدُّ الجَهْد، أي: خُذْ ما عفا لك من أفعالِ الناسِ وأخلاقِهم، وما أتىٰ منهم وتَسهَّل، مِن غيرِ كُلْفة، **ولا تُداقَّهُم**، ولا تَطلُبْ منهم الجَهْدَ وما يشقُّ عليهم، حتّىٰ لا يَنفِروا، كقوله ﷺ: «يَسِّروا ولا تُعَسِّروا»، قال:

خُذِي العَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيمي مَـوَدَّتِي ولا تَنطِقِي في سَوْرَتِي حِينَ أغضَبُ

وقيل: خُذِ الفَضْلَ وما تَسهَّلَ من صدقاتِهم، وذلك قبل نزولِ آيةِ الزكاة، فلما نزلَت أُمِرَ أن يأخذَهم بها طَوْعًا أو كَرْهًا.

و«العُرْفُ»: المعروفُ والجميلُ من الأفعال، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾: ولا تكافِئِ السُّفهاءَ بمِثلِ سَفَهِهم، ولا تُمارِهم، واحلُمْ عنهم، وأَغْضِ علىٰ ما يَسوؤُكَ منهم.

وقيل: لما نزلَت الآيةُ «سأَلَ جبريلَ: ما هذا؟ فقال: لا أدري حتىٰ أسألَ، ثم رجعَ فقال: يا مُحمَّدُ، إنَّ ربَّكَ أمَركَ **أن تَصِلَ مَنْ قَطَعَك**، ....

قولُه: (**ولا تُداقَّهُم**)، أي: لا تُناقِشهم. **الأساس**: «دَاقَّنِي في الحساب، مُدَاقَّة».

قولُه: (**أن تَصِلَ مَنْ قَطَعَك**). الحديث رواه أحمد بن حنبل في «مسنده»[1]، عن عُقبةَ بن عامر.

واعلَم أنّ التوفيقَ بينَ الآية والحديث إنّما يَستَتِبّ إذا أُخِذ الزبدة والخلاصة من المجموع. والزبدةُ في الآية: تَحرِّي حُسْنِ المعاشرة مع الناس، وتَوخِّي بذل المجهود في الإحسان إليهم، والمُداراةُ معهم، والإغضاءُ عن مساوئهم، وعلى هذا معنىٰ الحديث، ولكنه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٥٦١٨) والحاكم في «المستدرك» (٤: ١٧٨) والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠: ٤١٣ و٤١٤) بإسناد ضعيف.

وتُعطيَ مَنْ حَرَمَك، وتَعْفُوَ عمَّن ظَلَمَك». وعن جعفرِ الصادقِ: أَمَرَ اللهُ نَبيَّهُ عليه الصلاةُ والسلام بمكارِمِ الأخْلاقِ، وليس في القرآنِ آيةٌ أجمَعُ لمكارمِ الأخلاقِ منها.

[﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ٢٠٠]

أغرَبُ منه، وأصعبُ مُتناوَلاً، وكذلك ينبغي أن يكون، لأنّ القرآن مادّتهُ عامّة، والحديث القُدسيُّ مادّتهُ خاصّة، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠].

قولُه: (**أَمَرَ اللهُ نَبيَّه بمَكارِمِ الأخْلاقِ**): هو من حديثِ مالك، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «بُعِثْتُ لأُتـمِّمَ مَكارِمَ الأَخلاق»[1]. أخرجَه الإمامُ مالك في «الموطّأ».

أمّا بيان أن هذه الآية جامعة لمكارم الأخلاق، فلأن الخُلقَ ـ بضم اللام وسكونها ـ: الطبْع والسجيّـة. وحقيقتـه: أن الإنسان له صورة باطنة، وهي نفْسه، ولها صفات حسَنة، وصفات قبيحة، وعليهما يترتّب الثواب والعقاب في الآخرة. والأنبياء بُعِثوا لتغْيير الصفات القبيحة إلىٰ الحسنة، ليتخلّص الناس من العقاب، ويخْلُصوا إلىٰ الثواب. ولا شكّ أن نبيَّنا صلوات الله عليه خاتمهم، بُعِث لإتمام ما دَعَوُا الناس إليه، و«كانَ خُلُقُهُ القُرْآن»[2]، كما رُوي عن عائشة رضي الله عنها، فدعا الناس بخلُقه إلىٰ صراط مستقيم. فالمدْعوّ إما: مؤمن موافق، أو مخالِف؛ فالمخالف إما معانِد أو غير معاند، وطريق الدّعوة مع الفِرقة الأُولىٰ بأداء العبادات، وتزكية النفس من الرذائل، وتحليتها بالفضائل، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. ومع الثانية بالمداراة والمساهلة وإرخاء العنان، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ الآية [آل عمران: ٦٤].

---

(١) أخرجه الإمام مالك بلاغاً في «الموطأ» (٢: ٩٠٤) ووصله البزار في «المسند» (٨٩٤٩) والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠: ١٩١)، وانظر تمام تخريجه في «مسند الإمام أحمد» (٨٩٣٩).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢٤٦٠١) وفيه تمامُ تخريجه.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾: وإما يَنخَسَنَّكَ مِنه نَخْس، بأن يحمِلَك بوَسْوستِه علىٰ خِلافِ ما أُمِرْتَ به، ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ ولا تُطِعْه.

النَّـزْغُ والنَّسْغ: الغَـرْزُ والنَّخْس، كأنه يَنخَسُ الناسَ حين يُغْرِيهم علىٰ المعاصي، وجعلَ النَّزْغ نازِغًا، كما قيل: جِدَّ جَدُّه.

وروينا عن مسلم عن أبي موسىٰ، قال: كان النبي ﷺ إذا بَعَثَ أحداً مِن أصْحَابِهِ في بعض الأمور قال: «بَشِّروا وَلا تُنفِّرُوا، ويَسِّرُوا وَلا تُعَسِّرُوا»[1].

ومع الثالثة بالمتاركة والإعراض. وإليه أومأ بقوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. وقال تعالىٰ: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ * فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٨-٨٩].

وعلى هذا القسم ينطبق الكلام مع السابق، لأنه كلام في المعاندين من المشركين، فوضع موضع ضميرهم ﴿ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ تسجيلاً عليهم بعدم الارعواء، وإقناطاً كلياً منهم، لأن جهلهم جهل مُركَّب، الا ترى كيف أعاد الضمير في قوله: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ * وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ [الأعراف: ٢٠٢-٢٠٣]. كل ذلك بيان للعناد والتمرّد.

قولُه: (كأنه ينْخس الناس حين يُغْرِيهم). قال القاضي: «شبّه وسوسته للناس، إغراءً لهم علىٰ المعاصي، وإزعاجاً، بِغَرز السائق ما يسوقه»[2].

قال الزجاج: «النّزْغ: أدْنَىٰ حركة من الآدميّ، وأدْنَىٰ وسْوسة من الشيطان»[3].

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٣٢) وأبو داود (٤٨٣٥) وغيرهما، وانظر تـمامَ تخريجه في «مسند الإمام أحمد» (١٩٥٧٢).

(٢) «أنوار التنزيل» (٣: ٨٥)..

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٢: ٤٣٨) بتصرف، ولفظه: «﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ لأدنىٰ حركة تكون. تقول: قد نَزَغْته: إذا حركته. فالمعنىٰ: إن نالك من الشيطان أدنىٰ نزغ، أي: وسوسة».

ورُوِي: أنها لـمّا نزَلَت قال رسولُ الله ﷺ: «كيفَ ـ يا رَبُّ ـ والغضبُ؟» فنزل: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ﴾. ويجوزُ أن يُراد بنَزْغِ الشيطانِ: اعتراءُ الغضَب، كقولِ أبي بكر رضيَ الله عنه: «إنّ لي شيطانًا يَعتَريني».

[﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ * وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ﴾ ٢٠١ - ٢٠٢]

قولُه: (لـمّا نزلت)، أي: قوله تعالىٰ: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، قال رسول الله ﷺ: «كَيْفَ، يَا رَبُّ، وَالْغَضَبُ؟!»، أي: كيف أصنع مع الظالم، والغضبُ حامِلٌ علىٰ الانتقام؟ فقيل: إنّ الغضب مِن نزْغ الشيطان ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ﴾[1].

روينا عن أبي داود، عن عطيّة[2]، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ»[3] الحديث.

قولُه: (ويجوزُ أن يُراد بنَـزْغِ الشيطانِ: اعتراءُ الغَضَب)، فالتـقدير: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، وإن اعتـراكَ غضبٌ منه[4] فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم.

رُوِّينا عن البخاريِّ ومسلم وأبي داود، عن سليمـان بن صُرَد[5]، قال: استَـبَّ رجُلان

---

(١) الحديث رواه الطبري من طريق ابن وهب ـ تفسير الطبري (١٣: ٣٣٣).

(٢) هو الصحابي عطية بن عروة السعديّ، من سعد بن بكر. لا تُعرف سنة وفاته.
انظر: «أسد الغابة» (٤: ٤٤)، و«الإصابة» (٤: ٥١١)، و«الاستيعاب» (٣: ١٠٧٠).

(٣) هو جزءٌ من حديثٍ أخرجه أبو داود (٤٧٨٦) والطبراني في «المعجم الكبير» (١٣٨٨١) وغيرهما، وانظر تمامَ تخريجه في «مسند الإمام أحمد» (١٧٩٨٥).

(٤) سقط من (ج) قوله: «منه».

(٥) صحابي خيِّر فاضل، سكن الكوفة. مات سنة ٦٥هـ. انظر: «أسد الغابة» (٢ ٤٤٩)، و«الرياض المستطابة» (١٠٦)، و«تجريد أسماء الصحابة» (١: ٢٣٧).

﴿طَيْفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: لَـمَّةٌ منه، مَصدَرٌ من قولهم: طافَ به الخيالُ يَطِيفُ طَيْفًا، قال:

أنّىٰ ألَـمَّ بكَ الخيالُ يَطِيفُ

أو هو تخفيفُ «طَيِّف» فَيْعِل، مِن: طافَ يَطِيف، كلَيْنٍ، أو مِن: طافَ يَطوف، كهَيْن. وقُرِئ: ﴿طَٰٓئِفٌ﴾، وهو يحتملُ الأمرَيْن أيضًا. وهذا تأكيدٌ وتقريرٌ لِما تقدَّمَ من وجوبِ الاستعاذةِ باللهِ عند نَزْغِ الشيطان، وأنَّ المتَّقين هذه عادتُهم: ....

عندَ رسول الله ﷺ، فبينَما أحدُهما يسبُّ صاحبَه مُغضَباً، قد احمَرَّ وَجهُه، قال رسول الله ﷺ: «إني لأعلَم كَلِمَة، لَو قالها، لَذَهَبَ عنه الذي يَجِد، لو قالَ: أعُوذُ بالله مِن الشَّيطان الرَّجيم، لذَهَبَ عَنه»(١) الحديثَ.

قولُه: (أنّىٰ ألَـمَّ بكَ الخَيالُ يَطِيفُ): تمامه:

وَمَطَافُـهُ لكَ ذِكرَةٌ وَشُغُوفُ

البيت لكعبِ بن زُهَير(٢).

ألَـمَّ: نَزَل، والإلمام: الزيارة. والذِّكرة: ضدُّ النسيان. والشُّغوف: امتلاءُ القلبِ من الحبّ.

قولُه: (وقُرِئ: ﴿طَٰٓئِفٌ﴾)(٣)، نافعٌ وابنُ عامر وعاصم وحمزة، وهو أيضاً يحتملُ أن يكون واوياً ويائياً.

قولُه: (وأنَّ الـمتَّقين هذه عادتُهم) عطفٌ تفسيري علىٰ قوله: «تأكيد»، أي: قولُه تعالىٰ:

(١) أخرجه البخاري (٦٠٤٨) ومسلم (٢٦١٠) وأبو داود (٤٧٨٣) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠١٥٣).

(٢) «ديوان كعب بن زهير»، ص١١٣.

(٣) انظر: «الكشف عن وجوه القراءات» (١: ٤٨٦-٤٨٧). و«حجة القراءات» ص٣٠٥.

إذا أصابَهم أدنىٰ نَزْغٍ من الشيطانِ وإلمامٍ بوَسْوستِه، ﴿تَذَكَّرُواْ﴾ ما أمرَ اللهُ به ونهىٰ عنه، فأبصَروا السَّدادَ ودفَعوا ما وَسْوَسَ به إليهم، ولم يُتْبِعوه أنفُسَهم. وأما «إخوانُ الشياطين» الذين ليسوا بمُتَّقين، فإنَّ الشياطينَ ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾، أي: يكونونَ مدَدًا لهم فيه ويَعْضُدونَهم. وقُرِئ: (يُمِدُّونَهم) من الإمداد، و«يُمادُّونهم»، بمعنىٰ: يُعاوِنونهم، ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾: ثم لا يُمْسِكونَ عن إغوائهم حتىٰ يُصِرّوا ولا يَرْجِعوا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾(١) تذييلٌ للكلام السابق، وتوكيدٌ لمعناه، ومن ثم صرَّحَ بذكر العادة.

ثم الخطابُ في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ إما أنْ يكون مُختصاً برسول الله ﷺ وهو الظاهر، إذ التقدير: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، وإن اعتراكَ غضبٌ فاستعذ بالله. فالمناسبُ أن يُرادَ بـ«المتّقين» المرسلُون من أُولي العزْم، كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، أو يكون(٢) عامّاً علىٰ طريقة: «بَشِّر المَشّائين إلىٰ المساجدِ بالنُّور التَّامّ»(٣)، أو خاصّاً يُرادُ به العامّ، كنحو: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١](٤)، فالمتقون حينئذ: الصالحونَ من عباد الله.

قولُه: (إذا أصابَهم أدنىٰ نَزْغٍ): الجملة من الشرطِ والجزاء بيانٌ للجملةِ قبلَها، وهي: «أنّ المتّقين هذه عادتُهم».

قولُه: (وقُرِئ «يُمِدُّونَهُم» من الإمداد) نافع(٥)، يقال: مَدَّ الدَّواةَ وأمدَّها: زادها ما يُصلِحُها. ومدّه الشيطانُ في الغيّ، وأمدّه: إذا أوْصلَه بالوَساوس حتى يتلاحقَ غيُّه.

---

(١) والشاهد فيها أنها تذييل لما قبلها، وتوكيد له.

(٢) معطوف علىٰ «يكون» السابق، والمقصود قوله تعالىٰ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) والشاهد في الآية أن الخطاب وإن يكن خاصاً للرسول ﷺ في طلاق نسائه، إلا أنه عام للمسلمين، فهو خاص يراد به العامّ.

(٥) انظر: «حجة القراءات»، ص٣٠٦ و«الكشف عن وجوه القراءات السبع» (١: ٤٨٧).

قوله: ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ ﴾ كقوله:

قَوْمٌ إذا الخَيْلُ حَالُوا في كَوَاثِبِها

في أنّ الخبرَ جارٍ علىٰ غير ما هو له.

قولُه: (قَوْمٌ إذا الـخَيْلُ حالُوا[1] في كَواثِبِها): تمامُه:

فَوَارِسُ الـخَيْلِ لاَ مِيلٌ وَلاَ قَـزَمُ

الـخَيل: الفُرْسان. حَالُوا ـ بالحاء المهملة ـ : وَثَبوا. يقال: حَالَ في ظهْر الفَرَس: وَثَب عليه وركب، والكاثبةُ من الفرس: ما تَقدَّم من قَرَبُوس[2] السَّرج. والمِيلُ: جمع أميَل، وهو: الذي لا يَثْبتُ علىٰ ظهر الدابّة. والقَزَم[3]: اللئام.

يقول: هُم فوارسُ الخيل، لا مائلون عن وجوه الأعداء، ولا لئامٌ ضِعافٌ صِغار، أو لا بخلاء، ليجمع لهم صفةَ الشجاعة والسَّخاوة.

قالوا: إنّ الاحتجاجَ بهذا البيت لا يصحّ، لأنّ «الخيل» ليس بمبتدأ، لأن «إذا» لا تدخلُ علىٰ المبتدأ المُتضمِّنِ معنىٰ الشرط.

وتقديرُه: إذا حالَ الخيلُ حَالوا في كواثِبها، فكان ارتفاعُ «الخيل» بالفاعلية.

وقوله: «حَالُوا في كواثبها» مُفسِّرٌ للقول السابق، والتفسيرُ في حُكْم الساقط، وإنّما نظيرُ الآية: هندٌ زَيدٌ تَضرِبُه.

---

(١) كذا في الأصول الخطية، وسيضبطه الطيبي بالحاء المهملة، وكذا هو في نص «الكشاف» من (ط)، لكن في الأصل الخطي منه وفي النسخ المطبوعة: «جالوا» بالجيم، وكذا هو في «الصحاح» و«لسان العرب» مادة (قزم)، و«شرح شواهد الكشاف» (٤: ٥٢٥)، والبيت لزياد بن منقذ.

(٢) بفتح القاف والرّاء وضمّ الباء، وهو: حِنْو السّرج، أي: القسم المرتفع من قدام المقعد ومن مؤخّره. وهما قَـرَبوسان. «المعجم الوسيط».

(٣) يستوي فيه المفرد والجمع، والمؤنث والمذكر. «الصحاح» مادة (قزم).

ويجوزُ أن يُرادَ بـ «الإخوانِ»: الشياطين، ويرجعَ الضميرُ المُتعلِّقُ به إلى الجاهلين، **فيكونُ الخبرُ جاريًا علىٰ ما هو له. والأوّل أوْجَه، لأنّ «إخوانَهم» في مقابلةِ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾**.

فإن قلتَ: لـِمَ جُمِعَ الضميرُ في «إخوانِهم». والشيطانُ مُفرَدٌ؟ قلتُ: المرادُ به الجنس، كقوله: ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وأُجيب: لِـمَ لا يجوزُ أنّ «إذا» قد انسلخَ عنه معنىٰ الاستقبال، وصار للوقتِ المُجرّد، علىٰ نحو: إذا يقومُ زيدٌ إذا يقومُ عمرو. بل المعنىٰ عليه؟

قولُه: (**فيكونُ الخبرُ جارياً علىٰ ما هو له**): فعلىٰ الأول التقدير: وإخوانُ الشياطين الذين ليسوا بمُتقين، الشياطينُ يَمدُّونَهم. الضميرُ المسندُ إليه الفعل ليس للمبتدأ، بل لمُتعلِّقِه. كما أنّ الضمير في «حَالُوا» لصاحب الخيل.

وعلىٰ الثاني التقدير: وإخوانُ الجاهلين الذين هم الشياطين، يَمُدُّون الجاهلين.

قولُه: (**والأوّل أوْجَه، لأنّ «إخوانَهم» في مقابلةِ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾**): يعني: في الكلام مُقابَـلة(١)، فيجبُ مُراعاتُـها. فإنّ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ أمرٌ للنبي ﷺ بالاستعاذة من نَـزْغِ الشيطان. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ إلىٰ آخر الآيتين، كالتعليل للأمر بالاستعاذة، يعني: دأبُ مَن هو علىٰ صفتِك من التقوى الاستعاذةُ عندَ نزْغ الشيطان، ودأبُ من يُخالِفُك بخلافِه.

روىٰ الواحِديُّ عن الضحّاك: «المشركون لا يُقصِرون عن الضلالة، ولا يُبصرونَها، بخلاف ما قال في المؤمنين: ﴿تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾»(٢).

---

(١) يعني المقابلة في المعنى بين الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾، والآية: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾.

(٢) «الوسيط» للواحدي (٢: ٤٣٩)، وانظر: «معالم التنزيل» (٣: ٣١٨).

[﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ٢٠٣]

اجتبىٰ الشيءَ، بمعنىٰ: جباهُ لنفسِه، أي: جَمَعَهَ، كقولك: اجتَمَعَه، **أو جُبِيَ إليه فاجتَباه**، أي: أخذَه، كقولك: جُلِيَتْ إليه العَروسُ فاجتَلاها، ومعنى ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾:

وأيضاً، الكلامُ في الأصل جارٍ علىٰ المشركين المُعاندين، كما سبق، وأنّ قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ وقوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ﴾ بعدَ ذِكر العفو، والأمر بالعُرْف، والإعراض، ونزْغ الشيطان، والاستعاذة، كالتخلُّص منه إلىٰ ذكْر ما ابتُدِئ له الحديث.

وفيه: أنه يجبُ عليك، أيها الدَّاعي البشيرُ النذير، إذا لَحِقَك منهم أذًى أن تعفوَ عنهم، وإن اعتراكَ غضبٌ يَحمِلُك علىٰ الانتقام فذاك نَزْغةٌ من الشيطان ونَخْسة، فإنّ الشيطانَ ليس له عليك سُلطان، سوىٰ هذه النَّخسةِ التي إذا استَعذْت بالله بطَلَت، لأنك من المُخْلَصين من عبادِه، لكنّ هؤلاء المشركين هم الذين اتّبعوا الشياطين، فلا يُفارِقونَهم، كالأخ لشقيقِه. والشياطينُ أيضاً لا يُقْصِرون في غيِّهم، يَمُدُّونهم غياً بعدَ غيّ.

ومن ذلك أنك إذا أعرضَت عنهم، وتركتَهم، ولم تأتِهم بآية، قالوا لك: ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ [الأعراف: ٢٠٣] ولا غَيَّ بعدَ اقتراح الآياتِ مع الاستهزاء، قل: إنّ آيتي هذا الكتابُ المعْجِزُ الظاهرُ لِـمَن له بصيرة، يُميِّزُ بينَ الحقِّ والباطل، ويُفرِّقُ بين الافتراءِ والصِّدق المَحْض، وهدًى ورحمةٌ لِـمَن آمنَ بأنّه من عندِ الله، وليس بافتراء.

وفيه تعريضٌ بهٰؤلاء الكَفرة أنْ لا بصائرَ لهم ولا هِدايةَ، وأنّهم من أهل غضبِ الله والآيسين من رحمتِه، حيثُ لم يَرفعوا به رأساً، كقوله تعالىٰ: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

قولُه: (**أَوْ جُبِيَ إليه فاجتَباه**)، الراغب: «جَبَيْتُ الماءَ في الحوض: جَمعْتُه. والحوض

هلّا اجتَمَعْتَها افتِعالًا من عندِ نَفْسِك؛ لأنهم كانوا يقولون: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ [سبأ: ٤٣]، أو: هلّا أَخَذْتَها مُنزَّلةً عليك مُقتَرحة؟ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى﴾ ولستُ بمُفتَعِلٍ للآيات، أو لستُ بمُقتَرِحٍ لها. ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ﴾: هذا القرآنُ بصائرُ ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي: حُجَجٌ بَيِّنةٌ يعودُ المؤمنون بها بُصَراءَ بعد العَمىٰ، **أو هو بمنزلةِ بصائرِ القلوب**.

الجامع له: جابِية، وجمعها: جَوَابٍ. ومنه: جَبَيتُ الخَراج، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [القصص: ٥٧]. والاجتباء: الجمعُ علىٰ سبيل[1] الاصطفاء. واجتباءُ الله العبد: تخصيصُه إياه بفَيْضٍ إلهي، يُتحصَّلُ منه أنواعٌ من النِّعم، بلا سَعْيٍ من العَبْد، وذلك للأنبياء وبعضِ مَنْ يُقارِبُهم مِن الصدِّيقينَ والشهداء»[2].

قولُه: (**اجتَمَعْتَها افْتِعالاً من عندِ نَفْسِك**): «افتعالاً»: حالٌ من الفاعل في «اجتَمَعتها»، وهذا مبنيٌّ علىٰ قوله: «اجتَبَىٰ الشيء، بمعنىٰ: جباه لنفسِه»، وقوله: «هلَّا أَخَذْتَها مُنَزَّلة» مبنيٌّ علىٰ قوله: «أَوْ جُبِيَ إليه فاجتباه». و«مُنـزَّلة»: حالٌ من المفعول. ومعنى قوله: «هلّا أخذتَها مُنزّلةً عليك مُقْتَرحة»: هلا طلبْتَ مِن الله وأنت مُقتَرِح، ليكون اقْتراحُك سبباً لأنْ يأخذَها وهي مُقتَرَحة؟

فعلىٰ هذا هو تَهكُّمٌ من الكفّار، كقوله تعالىٰ حكايةً عنهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

قولُه: (**أو هو بمنزلةِ بصائرِ القلوب**): يريد: أنّ «البصائر» هاهُنا إمّا من إطلاق المُسبَّبِ علىٰ السبب؛ فإنّ المراد: هذا حُجَجٌ وبُرهَان مِن ربّكم، تُفتَحُ بها أعيُنٌ عُمْي، وقلوبٌ صِفْرٌ عن البصيرة. ولـمّا كانت الـحُجَجُ سبباً لإدراك القلب، قيل: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ﴾، أو أنها استعارة، استُعيرَ لإرشادِ القرآن الخلق إلىٰ دَرْك الحقائقِ البصائرُ.

---

(١) في «مفردات القرآن»: «طريق».

(٢) المصدر السابق ص١٨٦.

[﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ٢٠٤]

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ ظاهرُه وجوبُ الاستماعِ والإنصاتِ وَقتَ قراءةِ القُرآنِ في صلاةٍ وغيرِ صلاة. وقيل: كانوا يتكلَّمونَ في الصَّلاةِ فنزَلَت، ثم صارَ سُنَّةً في غيرِ الصلاةِ أن يُنصِتَ القومُ إذا كانوا في مجلسٍ يُقرأُ فيه القُرآن.

وقيل: معناه: وإذا تلا عليكم الرسولُ القُرآنَ عندَ نُزولِه فاستَمِعوا له.

وقيل: معنىٰ ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ﴾: فاعمَلوا بما فيه ولا تُجاوِزُوه.

قولُه: (**وقيل: معنىٰ ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ﴾: فاعمَلوا بما فيه، ولا تجاوِزُوه**): قال الزّجاج: «لأنّ معنىٰ قول القائل: سَمِعَ اللهُ دعاءَك: أجابُ اللهُ دعاءَك»[1].

الأساس: «ومِن المجاز: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَه»: أجابَ وقَبِل، والأميرُ سَمِعَ كلامَ فُلان».

وقلت: هذا أوفَقُ لتأليف النظم سابقاً ولاحقاً، وأجمعُ للمعاني والأقوال. فإنه تعالىٰ لمّا ذَكَر تعريضاً بأنّ المشركين إنّما استهزؤوا بالقرآن، ونبذوه وراءَهم ظِهْرِيّاً، لأنهم فقدوا البصائر، وعَدِموا الهداية والرحمة، وأنّ حالَهم علىٰ خلافِ المؤمنين، أمرَ المؤمنين بمَزيدِ ما كانوا عليه من مُجَرَّدِ الاستماع، وهو العملُ بما فيه، والتمَسُّكُ به، وألا يُجاوِزُوه، تُرتُّباً للحُكم علىٰ تلك الأوصاف.

ولذلكَ قيل: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ﴾: وَضْعٌ للمُظهَر مَوضِعَ المُضمر، لمزيدِ الدلالة علىٰ العِلّيّة. يعني: إذا ظهَر، أيُّها المؤمنون، أنكم لستُم مِثْلَ هؤلاء المُعاندين، فعليكم بهذا الكتاب الجامع لصفاتِ الكمال، الهادي إلىٰ الطريق المستقيم، المُوصِلِ إلىٰ مَقام الرحمةِ والزُّلفىٰ، ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ﴾، وبالِغوا في الأخذِ منه، والعمل بما فيه، ليحصلَ المطلوب، و﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٢: ٤٤٠)، وتمام عبارته التي بها يظهر أخذ الزمخشري منها، قوله: «ويجوز أن يكون ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾: اعملوا بما فيه، ولا تجاوَزوا».

[﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ ٢٠٥]

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ ﴾ هو عامٌّ في الأذكارِ من قراءةِ القرآنِ والدُّعاءِ والتسبيحِ والتهليلِ وغيرِ ذلك، ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾: مُتضرِّعًا وخائِفًا، ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ﴾: ومُتكلِّمًا كلامًا دونَ الجهْرِ، لأنَّ الإخفاءَ أدخَلُ في الإخلاصِ وأقرَبُ إلىٰ حُسْنِ التفكُّرِ، ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ لفَضْلِ هذَيْن الوقتَين، أو أرادَ الدوام. ومعنىٰ ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾: بأوقاتِ الغُدُوِّ، وهي الغَدَواتُ. وقُرِئ: «والإيصال»، من: آصَلَ: إذا دخلَ في الأَصيل، كأقصَرَ وأعتَمَ،

فيدخلُ فيه وجوبُ الإنصاتِ في الصلاة، بالطريق الأولىٰ، لأنها مقامُ المناجاة، والاستماع مِن المُتكلِّم. وعلىٰ هذا الإنصات عند تلاوةِ الرسول ﷺ، وفيه أنّ رَفْعَ الجُناحِ[1] في غير الصلاةِ من باب السهولة وضعفِ القوّة.

قولُه: (وقرئ: «والإيصال»): قال ابنُ جِنّي: «قرأها أبو مِجْلَز، وهو مصْدر: آصَلْنا، فنحن مُؤْصِلُون، أي: دَخلْنا في وقتِ الأصيل»[2].

قولُه: (كأقصَرَ)، الجوهري: «أقصَرنا، أي: دخَلنا في قَصْر العَشِيِّ. كما تقول: أمسَيْنا، مِن المساء. وقَصْرُ الظلام: اختلاطُه. ويقال: أتيتُه قَصْراً، أي: عشيّاً».

قولُه: (وأعتَمَ): قال الخليل: «العَتَم[3] من الليل: بعدَ غَيبوبةِ الشفق»[4].

---

(١) أي: الإثم.

(٢) «المحتسب» (١: ٢٧١). وانظر: «البحر المحيط» (٥: ٢٦٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (٥: ٣٥٥).

(٣) نصّ الخليل هو: «والعَتَمَة: الثُلث الأوّل مِن اللّيل بعد غيبوبة الشفَق» وهو الصحيح.

(٤) كتاب «العين» للخليل (٢: ٨٢) مادة (عتَم).

وهو مطابِقٌ للغُدُوِّ ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ من الذين يَغفُلونَ عن ذِكرِ الله ويَلهَوْنَ عنه.

[﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ ٢٠٦]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ هم الملائكةُ صلواتُ الله عليهم، ومعنىٰ ﴿عِندَ﴾: دُنُوُّ الزُّلْفةِ والقُرْبِ مِن رحمةِ الله تعالىٰ وفَضْله، لتَوفُّرِهم علىٰ طاعتِه وابتغاءِ مرضاتِه، ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾: ويختصُّونَه بالعبادةِ لا يُشرِكونَ به غيرَه، **وهو تعريضٌ بمَنْ سِواهُم من المُكلَّفين**.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ سورةَ الأعرافِ جعَلَ اللهُ يومَ القيامة بينَه وبينَ إبليسَ سِترًا، وكان آدمُ شفيعًا له يومَ القيامة».

قولُه: (**مُطابِقٌ للغُدُوِّ**) لأنّ الأصلَ أن يُقال: بالغَدَوات، جمع «غَدْوة»، ليُطابق «الآصال» في الجمع. وأمّا علىٰ هذه القراءة[1] فهما مُفردان.

قولُه: (**وهو تَعريضٌ بمَنْ سِواهُم من المكلَّفين**): يعني: دلَّ تقديمُ مُتعلَّق ﴿يَسْجُدُونَ﴾ عليه، علىٰ أنّ غيرَهم لا يختصّونه بالسجود، بل يُشركون معه غيرَه[2].

وقلت: يُمكن أن يُقال: إن التقديمَ لمُراعاة الفواصل[3]، وإنّ الآيةَ بتمامِها تعريض، لأنّ وِزانَ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ الآية، مع قوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ الآية، وِزانُ قولِه: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨]، مع قوله: ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧] في ترتُّبِ الثاني علىٰ الأول، والمُخالفةُ بالفاءِ والاستئناف لا تمنعُ العِلّيّة.

---

(١) يعني قراءة «الإيصال» بالياء، وقد سبقت الإشارة إليها.

(٢) وهذا هو معنىٰ التعريض في الآية.

(٣) يعني بالفواصل: ما يقابل من القرآن السجع في كلام الناس.

المعنىٰ: ايتُوا بالعبادةِ علىٰ سبيل التضرُّع والاستكانة، واستشعار الخوف سرّاً، والخفْض من الصوتِ جَهْراً، لأنّ المطلوبَ المواطأةُ بينَ السرِّ والعلانية، في التواضع والمُداومة، فإن لم تأتوا بالعبادة علىٰ هذا الوجه، فاعلموا أنّا مُغنونَ عنكم، لأنّ لنا عباداً مُكرمين مُقرّبين، دأْبُهم وعادَتهم التواضُع وعدمُ الاستكبارِ في جميع أحوالِهم.

وبهذا ظهرَ أنّ القول بالمداومة في الغدوّ والآصال هو الوجه. ويدلُّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾، والتعريضُ بالأفعال المُضارِعة، أي: ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾، ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾، ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ لأنها تدلُّ علىٰ أنّ عدمَ الاستكبار، والتسبيحَ، والسجدةَ، دأْبُهم وعادتُهم، كقوله تعالىٰ: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فُصّلت: ٣٨].

وفي الآية الدلالة علىٰ أنّ الأصلَ في الذكر اللساني مراعاةُ سُلوكِ القَصْدِ والاعتدال، ونظيرُه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

وأمّا قولُه تعالىٰ: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] فمُخْتَصٌّ بالدعاء، واستنزالِ الإجابة، هذا إذا جُعِلَ الخطاب في قوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ عامّاً، نحوُ قولِه صلوات الله عليه: «بَشِّرِ المَشّائينَ إلىٰ المَساجِدِ بالنُّورِ التامِّ يومَ القيامَة»[1]. وأمّا إذا جُعلَ مُختصّاً برسول الله ﷺ، تأديباً له، وتأسّياً لأمّته، وإظهاراً لبيان مَكانتِه ومنزلتِه، فيكون في الآيات إشعارٌ بمَراتب الذِّكر، وبيانُ درجاتِ الذاكرين، بحسب تَفاوُتِ منازلِهم ومقاماتِهم، فقولُه تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا﴾ إشارةٌ إلىٰ أعلى المراتب، وهو حِصّةُ الواصلين المُشاهِدين، وقوله: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ هي المرتبةُ الوسطىٰ، وهي نصيبُ السائرين إلىٰ مقام المشاهدة، وقوله: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ إيماءٌ إلىٰ مرتبة النازلين من السالكين.

(١) من قوله: «عامّاً، نحو قوله» إلى هنا سقط من (ج). والحديث سبق تخريجه.

....

فالأمر في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ للوجوب، وفي ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ للترخص تأسّياً، والنهي بقوله: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ للترفع عن هذا المقام، علىٰ سبيل التهييج والإلهاب[١]. يعني: ولا تكن من الجاهرين بالصوت، لأن منزلتك فوق هذا المقام، لأنك من الواصلين إلىٰ عين الحقيقة، الماثلين في مقام الشهود، المنخرطين في زمرة المقرَّبين الذين جاهَدوا في قمْع خواطر النفْس، وإمَاطة لَوث الـهَوَىٰ.

وفي ذكر الخوف الإشعار باستشعار هيبة الجلال، قال:

أشْــتاقُهُ فــإذا بَــدَا ... أطْرَقْتُ مِنْ إجلالِـهِ

لا خِيفَــةً بــلْ هَيْبَــةً ... وصِيانةً لِــجَمالِهِ[٢]

ومن هذا المقام نَهَىٰ صلوات الله عليه أصحابَه، علىٰ ما روينا عن البخاري ومسلم والترمذي وأبي داود، عن أبي موسىٰ، قال: كنّا مع رسول الله ﷺ في سفَر، فجعَل الناس يجْهرون بالتكبير، فقال رسول الله ﷺ: «يا أيُّها النَّاسُ، ارْبَعُوا[٣] علىٰ أنـفُسِكُم، إنَّـكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ، وَلا غَائِباً، إنَّكُم تَدْعُونَ سَمِيعاً بَصِيراً، وَهُوَ مَعَكُم، وَالَّذِي تَدْعُونَه أقْرَبُ إلىٰ أَحَدِكُم مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»[٤]. كقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤][٥] و﴿أَقْرَبُ﴾[٦].

فعلىٰ هذا: حالُ المبتدئ والسالك منوطةٌ برأي الشيخ الـمُرْشد، فإنه قد يأمره برفع الصوت في الذكر، لقلْع الخواطر، وحديث النفس، لرسوخها فيه في بدء الأمر.

---

(١) إنّما قال: «على سبيل التهييج والإلهاب» لأن الغفلة لا تتصور من فعل الرسول ﷺ.

(٢) سبق تخريجها من «عوارف المعارف» للسهروردي ص٤٦٥.

(٣) اربَعُوا ـ بهمزة وصل وراء ساكنة وباء مفتوحة بعدها عين مضمومة ـ أي: انتظروا وأرْفِقوا، أو اخْفضوا أصواتكم.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

(٦) ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥].

فقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ إشارة إلىٰ هذا المقام.

ووَجدْتُ في بعض كلمات شيخِنا شيخ الإسلام أبي حفْص السُّهرَوَرْدِي، قُدِّس سِرُّه بلا شك[١] أنه قال: «بِنْيةُ العبدِ ووجودُه يحكِي مدينةً جامعة، وأعضاؤه وجوارحُه بمثابة سُكّانِ المدينة وقُطّان البلد. والعبد، في وقت إقبالِه علىٰ الذِّكْر، كمُؤذِّن صَعِدَ منارةً علىٰ باب المدينة، ويَقصِدُ إسماعَ أهلِ المدينة بالأذان، فهكذا الذاكر المُحقِّق، يَقْصِدُ إيقاظَ قلبِه، وإنباهَ أجزائه وأبعاضِه، يَذْكرُ بلسانِه، ويَعِي الذكْر بقلبِهِ ومُتفرِّقاتِ جوارحِه، فتكون مُناداةُ الذِّكر باللّسان، وصَداه في قُبّةِ القالَب، يَستحْضِرُ بالذكْر سكّانَ مدينة النَّفْس، ويَستجْمعُ شواردَ عَساكِرِ الفهْم والحِسّ، يقولُ ببعضِه، ويستمعُ بكلّه، إلى أن تنتقلَ الكلمةُ من اللسان إلىٰ القلب، فيَتنوَّرُ بها، ويَظفَرُ بجَدوىٰ الأحوال، ثم ينعكسُ نور القلبِ علىٰ القالب، فيَتزيَّنُ بمَحاسنِ الأعمال».

وقال أيضاً في «العَوارف»: «لا يزال العبدُ يُردِّدُ هذه الكلمة علىٰ لسانِه، مع مواطأةِ القلب، حتى تصيرَ الكلمةُ متأصّلةً في القلب، مُزيلةً لحديثِ النفس، ينوبُ معناها في القلب عن كلِّ حديث النفس. فإذا استولَت الكلمة، وسَهُلَت علىٰ اللسان، يَتشرَّبُها القلب، ويصيرُ الذِّكْر حينئذٍ ذِكْر الذات، وهذا الذكرُ هو المُشاهَدةُ والمكاشَفةُ والمُعاينة. وهذا هو المَقصِدُ الأقصىٰ من الخَلْوة. وقد يحصلُ هذا لا بذكْرِ الكلمة بل بتلاوةِ القرآن، إذا أُكثِرَ من التلاوة، واجتُهِدَ في مواطأة القلبِ مع اللسان، حتى تَجرِيَ التلاوةُ علىٰ اللسان، وتقومَ مقامَ حديثِ النفس، فيدخلَ علىٰ العبد سهولةٌ في التلاوة والصلاة»[٢]. والله أعلم.

تـمَّت السورة.

---

(١) كذا في الأصول الخطية!

(٢) «عوارف المعارف» للسهروردي، ص١٩٨-١٩٩، بتصرّف يسير.

فهرس زُمَر الآياتِ المفسَّرة

سورة الأنعام

الآيات	الصفحة
[١]	٥-١٤
[٢]	١٥-١٨
[٣]	١٩-٢٢
[٤-٥]	٢٢-٢٣
[٦]	٢٣-٢٥
[٧-٩]	٢٦-٢٩
[١٠]	٢٩-٣٠
[١١]	٣٠-٣١
[١٢]	٣١-٣٥
[١٣]	٣٦
[١٤-١٦]	٣٧-٤٢
[١٧]	٤٢-٤٣
[١٨]	٤٣
[١٩]	٤٣-٤٦
[٢٠-٢١]	٤٦-٥٠

الآيات	الصفحة
[٢٢-٢٤]	٥٠-٥٦
[٢٥-٢٦]	٥٦-٦٠
[٢٧-٢٨]	٦٠-٦٣
[٢٩]	٦٣-٦٤
[٣٠-٣١]	٦٤-٦٧
[٣٢]	٦٨
[٣٣]	٦٩-٧٢
[٣٤]	٧٣
[٣٥-٣٦]	٧٣-٧٦
[٣٧]	٧٦-٧٧
[٣٨]	٧٧-٧٩
[٣٩]	٨٠
[٤٠-٤١]	٨١-٨٤
[٤٢-٤٥]	٨٤-٨٩
[٤٦]	٨٩-٩٠
[٤٧]	٩١
[٤٨]	٩١-٩٢
[٤٩]	٩٢
[٥٠]	٩٣-٩٧
[٥١]	٩٧-٩٨
[٥٢]	٩٨-١٠٣
[٥٣]	١٠٤-١٠٥

الآيات	الصفحة
[٥٤]	١٠٧-١٠٦
[٥٥]	١٠٨-١٠٧
[٥٨-٥٦]	١١٤-١٠٨
[٥٩]	١١٦-١١٤
[٦٠]	١١٩-١١٧
[٦٢-٦١]	١٢٢-١٢٠
[٦٤-٦٣]	١٢٣-١٢٢
[٦٧-٦٥]	١٢٦-١٢٣
[٦٩-٦٨]	١٢٨-١٢٦
[٧٠]	١٣٤-١٢٩
[٧١]	١٣٧-١٣٤
[٧٣-٧٢]	١٤٠-١٣٧
[٧٩-٧٤]	١٤٥-١٤٠
[٩٠-٨٠]	١٥٦-١٤٥
[٩١]	١٦٢-١٥٦
[٩٢]	١٦٤-١٦٢
[٩٣]	١٦٧-١٦٤
[٩٤]	١٦٨-١٦٧
[٩٥]	١٧١-١٦٩
[٩٦]	١٧٥-١٧١
[٩٧]	١٧٦-١٧٥
[٩٨]	١٧٨-١٧٦

الآيات	الصفحة
[٩٩]	١٧٩-١٨٦
[١٠٠]	١٨٧-١٩٣
[١٠١]	١٩٣-١٩٥
[١٠٢]	١٩٦-١٩٧
[١٠٣]	١٩٧-٢٠١
[١٠٤]	٢٠١-٢٠٢
[١٠٥]	٢٠٢-٢٠٥
[١٠٦-١٠٧]	٢٠٦
[١٠٨]	٢٠٧-٢٠٩
[١٠٩]	٢٠٩-٢١٣
[١١٠]	٢١٣-٢١٤
[١١١]	٢١٤-٢١٦
[١١٢]	٢١٦-٢١٧
[١١٣]	٢١٧-٢١٨
[١١٤]	٢١٨-٢٢١
[١١٥]	٢٢٢-٢٢٤
[١١٦]	٢٢٤
[١١٧-١١٩]	٢٢٥-٢٢٧
[١٢٠]	٢٢٧
[١٢١]	٢٢٨-٢٣٢
[١٢٢-١٢٣]	٢٣٢-٢٣٧
[١٢٤]	٢٣٧-٢٣٨

الآيات	الصفحة
[١٢٥-١٢٧]	٢٣٨-٢٤٤
[١٢٨]	٢٤٤-٢٤٧
[١٢٩]	٢٤٧
[١٣٠]	٢٤٧-٢٤٩
[١٣١-١٣٢]	٢٤٩-٢٥١
[١٣٣-١٣٤]	٢٥١-٢٥٢
[١٣٥]	٢٥٣-٢٥٥
[١٣٦]	٢٥٥-٢٥٦
[١٣٧]	٢٥٦-٢٦٣
[١٣٨]	٢٦٤
[١٣٩]	٢٦٥-٢٦٧
[١٤٠]	٢٦٧
[١٤١]	٢٦٧-٢٧٠
[١٤٢-١٤٤]	٢٧٠-٢٧٤
[١٤٥]	٢٧٤-٢٧٨
[١٤٦-١٤٧]	٢٧٨-٢٨٢
[١٤٨-١٤٩]	٢٨٣-٢٨٧
[١٥٠]	٢٨٧-٢٨٩
[١٥١]	٢٨٩-٢٩٢
[١٥٢]	٢٩٣
[١٥٣]	٢٩٣-٢٩٥
[١٥٤]	٢٩٦-٢٩٨

الآيات	الصفحة
[١٥٥-١٥٧]	٢٩٩-٣٠٠
[١٥٨]	٣٠١-٣٠٨
[١٥٩]	٣٠٨-٣٠٩
[١٦٠]	٣٠٩
[١٦١]	٣٠٩-٣١٠
[١٦٢-١٦٣]	٣١٠
[١٦٤]	٣١١
[١٦٥]	٣١١-٣١٢

سورة الأعراف

[١-٢]	٣١٣-٣١٧
[٣]	٣١٧-٣١٩
[٤]	٣٢٠-٣٢٤
[٥]	٣٢٥-٣٢٧
[٦-٧]	٣٢٨-٣٢٩
[٨-٩]	٣٢٩-٣٣٢
[١٠]	٣٣٢-٣٣٤
[١١]	٣٣٤-٣٣٥
[١٢]	٣٣٦-٣٣٧
[١٣]	٣٣٨-٣٣٩
[١٤-١٥]	٣٣٩
[١٦-١٧]	٣٤٠-٣٤٦
[١٨]	٣٤٦-٣٤٧

الآيات	الصفحة
[١٩-٢٢]	٣٤٧-٣٥٥
[٢٣]	٣٥٦
[٢٤-٢٥]	٣٥٦-٣٥٧
[٢٦]	٣٥٧-٣٦٠
[٢٧]	٣٦٠-٣٦٤
[٢٨]	٣٦٤-٣٦٥
[٢٩]	٣٦٦-٣٦٧
[٣٠]	٣٦٧-٣٧٠
[٣١]	٣٧١-٣٧٢
[٣٢]	٣٧٣-٣٧٤
[٣٣]	٣٧٤-٣٧٦
[٣٤]	٣٧٧-٣٧٨
[٣٥-٣٦]	٣٧٨
[٣٧]	٣٧٩
[٣٨-٣٩]	٣٧٩-٣٨١
[٤٠-٤١]	٣٨٢-٣٨٧
[٤٢]	٣٨٧
[٤٣]	٣٨٨-٣٩٠
[٤٤-٤٥]	٣٩١-٣٩٢
[٤٦]	٣٩٢-٣٩٣
[٤٧-٤٩]	٣٩٣-٣٩٨
[٥٠-٥١]	٣٩٨-٤٠٠

الآيات	الصفحة
[٥٢-٥٣]	٤٠٠-٤٠٣
[٥٤]	٤٠٣-٤٠٧
[٥٥-٥٨]	٤٠٨-٤١٦
[٥٩]	٤١٦-٤١٩
[٦٠-٦٢]	٤١٩-٤٣٢
[٦٣]	٤٣٢
[٦٤]	٤٣٣
[٦٥-٦٩]	٤٣٣-٤٣٨
[٧٠-٧٢]	٤٣٩-٤٤٣
[٧٣-٧٤]	٤٤٤-٤٥٠
[٧٥-٧٩]	٤٥٠-٤٥٦
[٨٠-٨٤]	٤٥٧-٤٦٣
[٨٥-٨٧]	٤٦٣-٤٧٣
[٨٨-٨٩]	٤٧٣-٤٧٦
[٩٠-٩٢]	٤٧٧-٤٧٩
[٩٣]	٤٨٠-٤٨٢
[٩٤-٩٥]	٤٨٢-٤٨٤
[٩٦]	٤٨٤-٤٨٦
[٩٧-٩٨]	٤٨٦-٤٨٩
[٩٩]	٤٨٩-٤٩٠
[١٠٠]	٤٩٠-٤٩٣
[١٠١]	٤٩٣-٤٩٧

الآيات	الصفحة
[١٠٢]	٤٩٨-٤٩٧
[١٠٥-١٠٣]	٥٠٤-٤٩٨
[١٠٨-١٠٦]	٥٠٧-٥٠٤
[١١٢-١٠٩]	٥٠٩-٥٠٧
[١١٤-١١٣]	٥١١-٥١٠
[١٢٢-١١٥]	٥١٣-٥١١
[١٢٤-١٢٣]	٥١٤-٥١٣
[١٢٦-١٢٥]	٥١٧-٥١٤
[١٢٧]	٥٢٠-٥١٧
[١٢٩-١٢٨]	٥٢٦-٥٢١
[١٣٠]	٥٢٧
[١٣١]	٥٣٠-٥٢٨
[١٣٣-١٣٢]	٥٣٦-٥٣١
[١٣٦-١٣٤]	٥٣٩-٥٣٦
[١٣٧]	٥٤١-٥٣٩
[١٤٠-١٣٨]	٥٤٥-٥٤١
[١٤١]	٥٤٦-٥٤٥
[١٤٢]	٥٤٧-٥٤٦
[١٤٣]	٥٦٨-٥٤٧
[١٤٤]	٥٦٩
[١٤٧-١٤٥]	٥٧٩-٥٦٩
[١٤٩-١٤٨]	٥٨٤-٥٧٩

الآيات	الصفحة
[١٥٠-١٥١]	٥٨٤-٥٩٢
[١٥٢]	٥٩٣-٥٩٤
[١٥٣]	٥٩٤-٥٩٥
[١٥٤]	٥٩٥-٥٩٦
[١٥٥-١٥٧]	٥٩٧-٦١٠
[١٥٨]	٦١١-٦١٤
[١٥٩]	٦١٤-٦١٩
[١٦٠]	٦٢٠-٦٢٥
[١٦١-١٦٢]	٦٢٥-٦٢٦
[١٦٣-١٦٦]	٦٢٧-٦٣٥
[١٦٧]	٦٣٥-٦٣٦
[١٦٨-١٦٩]	٦٣٦-٦٤٣
[١٧٠]	٦٤٣-٦٤٤
[١٧١]	٦٤٤-٦٤٦
[١٧٢-١٧٤]	٦٤٦-٦٦١
[١٧٥-١٧٦]	٦٦٢-٦٧٠
[١٧٧]	٦٧١
[١٧٨]	٦٧١-٦٧٢
[١٧٩]	٦٧٣-٦٧٥
[١٨٠]	٦٧٥-٦٧٦
[١٨١]	٦٧٦-٦٨٣
[١٨٢-١٨٥]	٦٨٣-٦٨٩

الآيات	الصفحة
[١٨٦]	٦٨٩-٦٩٠
[١٨٧]	٦٩٠-٦٩٦
[١٨٨]	٦٩٦-٦٩٧
[١٨٩-١٩٠]	٦٩٧-٧١١
[١٩١-١٩٣]	٧١٢-٧١٤
[١٩٤-١٩٥]	٧١٤-٧١٥
[١٩٦-١٩٧]	٧١٦
[١٩٨]	٧١٧
[١٩٩]	٧١٨-٧١٩
[٢٠٠]	٧١٩-٧٢١
[٢٠١-٢٠٢]	٧٢١-٧٢٥
[٢٠٣]	٧٢٦-٧٢٧
[٢٠٤]	٧٢٨
[٢٠٥]	٧٢٩-٧٣٠
[٢٠٦]	٧٣٠-٧٣٣

❊ ❊ ❊